الرياضة وأدب النفس

للإمــام
أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن
(الحكيم الترمذي)

تقديــم

أ. د/إبراهيم صلاح الهدهد
عضو مجمع البحوث الإسلامية
ورئيس جامعة الأزهر - سابقًا

هدية مجلة الأزهر - شعبان ١٤٤٠هـ



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

الحكيم الترمذي سيرة حياة

بقلم أ.د / إبراهيم صلاح الهدهد

هو أبو عبد الله محمّد بن علي بن الحسن بن بشر الملقّب بـ« الحكيم الترمذي » ، من مواليد سنة : ٢٠٥ هـ/ ٨٣٥ م ، وقد اضطرب مؤرخوه في تاريخ وفاته ، فمنهم من قال سنة ٢٥٥هـ وسنة ٢٨٥ هـ، وينقض الأول أن السبكي يذكر أنه حدَّث بنيسابور سنة ٢٨٥هـ كما ينقض الثاني قول ابن حجر : إن الأنباري سمع منه سنة ٣١٨هـ، وكان شديد الورع غزير العلم نشأ في بيت علم ، ومما يدل على شدة ورعه ما ذكروا من أن أولاده سئلوا كيف كان حال أبيهم عندما يغضب ؟ فقالوا : إننا نعرفه عندما كان يغضب ، فإنه يكون أكثر حنانًا وأشد عطفًا ، كان يكف عن الطعام والشراب وينتحب ويقول : يا مولاي كيف أغضبتك حتى جعلتهم يغضبونني تبت إليك يامولاي فأصلح حالهم ، وكان مولده ونشأته في مدينة ترمذ على نهر جيحون في إقليم ما وراء النهر ، وقد وصفها ياقوت : [أنها مدينة مشهورة ، وأسواقها مفروشة بالآجُرّ ، وقد ذكروا أن هذه المدينة من أمهات المدن ، بل أجل مدينة على نهر جيحون ، وقد ذكروا أن الإسكندر الأكبر هو الذي أسسها ، كما وصفها المقدسي بأنها نظيفة طيبة

وأن المراكب تقلع إليها من كل جانب، كما كانت موطنًا لعدد كبير من المحدثين والفقهاء، منهم المحدث أبو عيسى الترمذي، ولقد كانا في عصر واحد، وهذا العصر القرن الثالث الهجري وشطر من القرن الرابع الهجري يعد العصر الذهبي للعلوم الإسلامية، وهو العصر الذهبي للتصوف أيضًا، وصُنف في هذا العصر أهم كتب الحديث والمسانيد ومنها الكتب الستة: البخاري (ت:٢٥٦هـ) ومسلم (ت: ٢٦١هـ) وسنن أبي داود (ت:٢٧٥هـ)، وسنن الترمذي، (ت: ٢٧٩هـ) وسنن النسائي (ت:٣٠٣هـ) وسنن ابن ماجه (ت : ٢٧٣هـ) وكذلك كتب علم الكلام ففي هذا العصر كان أبو الحسن الأشعري (ت :٣٣٠هـ) كما حظي هذا العصر بأعلام التصوف من أمثال : الحارث بن أسد المحاسبي (ت: ٢٤٣هـ) وحمدون القصار (ت: ٢٧١هـ) وأبي يزيد البسطامي (٢٦١هـ) وأبي القاسم الجنيد (٢٧١هـ) وسهيل بن عبد الله التستري (ت : ٢٨٣هـ) والحسين بن منصور الحلاج (٣٠٩هـ) وغيرهم كذي النون المصري.

وقد جمع منذ صباه بين علم الآثار وعلم الرأي، وكان لاشتغال والده بطلب الحديث وروايته أثر كبير في تكوينه. اتّجه منذ السابعة والعشرين من عمره إلى حفظ

القــرآن وتدبّر معانيــه، وخالط أهل التصــوّف؛ فانصرف إلــى الرياضة والمحاســبة ولم يكن يتحرّج فــي محاوراته ومناظراته مــن الكلام على تجربتــه الصوفيّة ونقد علماء زمانه في مختلف المســائل الدينيّة، وهو ما جعله يتعرّض لحملــة عنيفة مــن علماء الحديث والفقــه وحتّى عدد من الصوفيّة؛ فاتّهــم بالهوى والبدعة وادّعــاء النبوّة، ويذكر المؤرّخــون أنّ ســبب هذه الحملــة يعود إلــى كتابه «ختم الولايــة وعلــل الشــريعة». وقــد كان هــذا الكتاب ســببًا فــي اضطهــاده، وكثــرة الادعــاءات عليه، والنــاس أعداء مايجهلون، وليس بغريب أن تطير شائعة عن أحد في الناس فتسير مسير الحقائق التي لا تنخرم، وما حادثة الإفك منا ببعيد، وكان ذلك كله بســبب الأخذ عن الناس فيما اتهم به، حتى إن الدكتور علي حســن عبد القادر وآربري حينما قدما للكتاب الذي نقدم له، (الرياضة وأدب النفس) جنيا عليــه، فاتهماه بأنه يقــدم الولاية على النبــوة، ولما ظهر كتــاب ختم الولاية، تبيّن أن الرجــل يقارن بين المقامين، مقــام الولاية فــي رتبة من مراتبها، ومقــام النبوة، وكذلك أيضا الدكتور أبو العلا العفيفي في كتابه : التصوف الثورة الروحية في الإسلام، تابع من سبقوه في اتهام الحكيم بأنه يقدم الولاية على النبوة، وهو اتهام غير صحيح، كما أكد

علــى ذلك العالم الجليــل د / عبد الفتاح بركة عضو هيئة كبار العلماء.

وقد تسـبب هذا الكتاب في نفيه مـن ترمذ فاتّجه نحو بلـخ، حيث أكرمه أهلهـا واجتمعوا حولـه؛ فظهر فضله وانتشـر ذكره. قام بعدد من الرحـلات في كل من العراق والشـام والمدينـة ومكّة ونيسـابور.. ممّا أتـاح له معرفة غزيـرة بعلـوم الـرأي وتحصيل الآثـار والحديـث والفقه والتصـوّف، وقد سـماه الذهبـي: المحدث، ومـن يتتبع أحاديثـه يجـزم بأنه يـروي عن موثوق بهم ممـا يؤكد أنه كان مشتغلًا بالحديث والرواية.

من أبرز شـيوخه: أبوه كما ذكر في هذا الكتاب الذي بيـن أيدينـا، فقد روى عنـه أكثر من مرة حيـث يقول في أكثـر من موضع فـي الكتاب: وحدثنا بذلـك أبي ـ رحمه الله ـ ومنهم سـفيان بن وكيع الجراح، ويعقوب بن شـيبة بن الصلت، وعبد الجبار بن العلاء وقتيبة بن سعيد الثقفي البلخـي، وقتيبـة هـذا قد روى عنـه أحمد بـن حنبل وأبو خيثمـة زهير بن حرب، وأبو بكر بن أبي شـيبة والحسـن بـن محمد بن صالح الزعفراني، وأبو داود السجسـتاني، والبخاري ومسـلم في صحيحيهما، وقد سـئل عنه يحيى

بن معين فقال: ثقة، والفضل بن محمد، وعلي بن حجر، والجارود بن معاذ، وأبو بكر بن سابق الأموي.

من تلامذته: يحيى بن المنصور القاضي والحسن بن علي وغيرهم من محدثي العصر، وممن صاحبوه في التصوف أبو تراب عسكر النخشبي (ت: ٢٤٥هـ) وهو من جلة مشايخ خراسان المذكورين بالعلم والتوكل والزهد والورع، قال عنه السبكي: كان شيخ عصره بلا مدافعة جمع بين العلم والدين زاهدًا ورعًا متقشفًا متقللًا متوكلا متبتلا، وأبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي (ت: ٢٤٠هـ) وأبو عبد الله يحيى بن الجلاء، وأبو بكر الحكيم الوراق وأبو علي الجوزجاني.

مؤلّفاته: ختم الولاية، نوادر الأصول في أحاديث الرسول، الفروق، منازل العباد من العبادة، الأمثال من الكتاب والسنّة، الرياضة وأدب النفس، المسائل المكنونة، وله أيضًا: (غرس الموحدين) و (غور الأمور) (المناهي) (الصلاة ومقاصدها) وكتاب (الأكياس والمغترين) و (بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب) رسالة طبعت سنة ١٩٥٨م مصدرة بترجمة حسنة لمؤلفها وبأسماء ٥٧ كتابًا أو رسالة من تصنيفه، و (العقل والهوى) و(العلل) وفي الأعلام للزركلي أن

له علاوة على ما مضى له :الأعضاء والنفس، والمنهيات، ورياضــة النفــس، وأدب النفــس، وله أيضا كتــاب الحج وأســراره والرد علــى الاحتياجات، وقد نفى نســبتهما له د. عبــد الفتاح بركــة، وله أيضًا الرد علــى المعطلة، وقد ترجم هو لنفسه في رسالة سماها : بدء شأن أبي عبد الله.

وفاتــه: توفّــي الحكيم الترمذي ســنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م بمدينة ترمذ.[1]

---

(١)) ينظر: :موسوعة أعلام الفكر الإسلامي ٢٩٠:٢٩٣ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والأعــلام للزركلي ٢٧٢/٨.، والحكيم الترمذي ونظريتــه في الولاية للدكتور عبد الفتاح بركة في الجزء الأول ط مجمــع البحوث الإسلامية، ومقدمة كتاب الرياضة وأدب النفس للدكتور على حسن عبد القادر وآربري.

هذا الكتاب

هما كتابــان في كتاب واحد الأول منهمــا : كتاب الرياضة والثاني منهما كتاب أدب النفس، والكتابان من كتب الســلوك والمجاهــدة التي تهذب النفس وتروضها نحو الطريق الأسدّ، وتــدرب النفــوس علــى طريــق التزكيــة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وتنحــى بالنفــس عن طريق الخيبة والخســار ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ ويشــرح فــي الكتــاب أنــواع النفــس المذكــورة في كتــاب الله (النفــس اللوامة والنفــس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء) ثم يورد لك أنماطًا من مجاهدة النفس عن بعض التابعين فقد ورد أن أحدهم قال : ألزمت نفسي الصمت بحصاة جعلتها في فمــي، وأورد الفرح المذموم والمحمود في كتــاب الله، ومجاهدة النفس الفرح المذموم وســبل ذلك، كما بين أضرب كل فــرح، كما فصل القول في أهل المجاهدة وهم فرقتان : فرقة حفظت الجوارح وأدت الفرائض، وسارت إلى الله -عز وجل- قلبًا فلم تعرّج على شيء حتى وصلت إلى الله -عز وجــل- وفرقة حفظت الجــوارح وأدت الفرائــض بجهد وتعب في كد محافظة وحراســة، وهو في كل ذلك يورد الآيات الدالة ويبين معانيها، والأحاديث ويبين شرحها.

والكتاب الثاني : كتاب أدب النفس بين فيه الأخلاق اللازمة لأدب النفس من مثل مقامات الصبر ومقامات الرضا، والتأني،

وطهـارة القلب، وما يعين على ذلـك من ضرورة معرفة طبيعة القلـب وخلقته، ويـورد الآيات الواردة فـي كل ذلك ويتبعها بيـان نفيس لمعانيها، فمثلاً يورد قوله ـ تعالى ـ ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ يقول بعـد ذكرهـا: قـد ألقيـت الخلـق وراء ظهري فنظـري إليك وقطعت الأسـباب فتعلقي بك والله ـ تبارك وتعالى ـ قائم عليه يرعـاه ويكلـؤه ويؤيده وينصره، وهكذا شـأنه مع كل آية في الموضوع، وكذا الشـأن مع كل حديث، والكتاب كله كذلك يخاطـب الـروح والنفس، ويخـرج بها من مدارك الشـهوات والشـبهات إلى يفاع(٢) الطاعة وأرقى المقامات، وهو يشـفع كل ما يقول بالأدلة من الكتاب والسـنة، فرأى مجلس تحرير مجلة الأزهر الغراء نشر هذا الكتاب في الناس لمواجهة كدح الحياة، والتغلب على شهواتها التي لا تفتأ تدفعها عن المنهج الرباني، الـذي يرقى بالنفوس، نفعنـا الله وإياكم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته.

كتبـه

أ.د. إبراهيم صلاح الهدهد

عضو مجمع البحوث الإسلامية

ورئيس جامعة الأزهر - سابقًا

(٢) يفاع: هو كل شيء مرتفع. تهذيب اللغة ١٤٨/٣. (المجلة).

كتاب الرياضة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي -رحمة الله عليه- :

الحمد لله رب العالمين، ولي الحمد وأهله. أما بعد؛ فإن الله تعالى خلق الآدميين لخدمته[1]، وخلق ما سواهم سُخرة لهم؛ فقال تعالى في تنزيله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾
(البقرة: ٢٩)

ثم قال:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾
(الجاثية: ١٣)

فجعل في كل مسخر ما يحتاج إليه هؤلاء الخدم[2]، وما يرجع نفعه إليهم، وهم كلهم قانتون، يؤدون السخرة إلى هؤلاء الخدم؛ فأظهر خلقهم من القدرة بقوله: (كن)، وأظهر خلق هؤلاء الخدم من المحبة بيده؛ فعجن طينته، وصوره بيده؛ ثم جعله ذا أجزاء، كل جزء منه يعمل عملاً غير عمل الآخر، ثم نفخ فيه من روحه. وهو روح الحياة، ونفست الطينة، فبدت النفس واستقرت. وتنفست في الجوف: فجعل في ظاهره يدين

(١) لعبادته.

(٢) الآدميين. (المجلة).

ذواتي أصابع ومفاصل، يبسط ويقبض؛ ورجلين موشجتين[٣] في الوركين، ذواتي ساقين؛ وقدمين يختلف بهما في قطع المسافات؛ وعينين بهما يشتمل على الألوان لذة وجهدًا؛ وأذنين بهما يتناول الأصوات لذة وخبرا؛ ولسانًا يديره في قبو حنكه إلى شفتيه، ليتلفظ بنغماته من صدره إلى شفتيه، مؤدية تلك النغمات معاني الأمور التي يعقلٍ، وتتردد في صدره صور تلك الأمور، فتصير تلك الصور حروفًا مؤلفة، فيبرزها بصوت يسمع به آذان المستمعين له، حتى تصير تلك الأسماع قمعًا لهذا الصوت، فيتحول ما في صدر هذا من علم الأمور إلى صدر المستمع، من طريق فم هذا إلى أذن الآخر، فيكون قد أفرغ ما في صدره من صور الأمور ومعانيها بالحروف والصوت، إلى صدر صاحبه. وجعل له منخرين للنفس والمشام[٤]، ومعدة صيرها دار رزقه؛ وباب هذه الدار متصل بالقبو، وبابين في أسفل جسده، أحدهما مخرج للذرية، والآخر مخرج الفضول والأذى؛ وذلك أن العدو لما غره حتى أكل من الشجرة، وجد السبيل إلى معدته بتلك الأكلة التي أطاعه فيها، فجعله مستقره، فنتن ما في المعدة لرجاسة العدو؛ فمن هاهنا وجب علينا غسل الأطراف مما يظهر من المعدة من الغائط والبول وريحهما؛ ثم وضع في جوفه بضعة جوفاء سماها قلبًا وفؤادًا، فما بطن منها فهو القلب، وما ظهر منها فهو فؤاد؛ وإنما سمي قلبًا؛ لأنه يتقلب

(٣) وَشج الشيء: اشتبك وتداخل والْتَفّ، والمقصود:مَوْصولتين.(المجلة).
(٤) أي للشّمَّ.

بتقليب الله عز وجل إياه؛ لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، يقلبه بمشيئاته فيه؛ وسمي فؤادًا لأنه غشاء لتلك البضعة الباطنة، ومنه يقال: هذا خبز فئيد، وخبز ملة(٥)؛ لأنها خبزة قد ظاهرها أخرى؛ وجعل له على هذا الفؤاد عينين وأذنين، وبابًا في الصدر، وصيَّر القلب بيتًا له عينان وأذنان، وبابًا في الصدر؛ وجعل الصدر ساحة هذا البيت؛ وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبدًا، وجعلها مجمع عروق هذا الجسد كله، ومنه ينقسم ما يخرج من المعدة من قوة الطعام الذي طحنته المعدة، حتى صار دمًا طريًا، فجرى في جميع العروق، وألصق بأسفله بضعة أخرى، فسماها طحالا، وإلى جانب الأخرى سماها رئة، ومسكن النفس فيها، ومنها تتنفس النفس لحياتها التي فيها، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين؛ ثم وضع بين القلب والرئة وعاء رقيقًا، فيه ريح هفافة، تجري في العروق مجرى الدم، وأصل تلك الريح من باب النار، مخلوقة من نار جهنم، لم يصل إليها سلطان الله وغضبه، فتسود كما اسودت جهنم، بل هي نار مضيئة حفت النار بها؛ موضوع في هذه النار الفرح والزينة، وسماها شهوة؛ وإنما سميت شهوة لاهتشاش النفس إليها، يقال، اهتشت واشتهت؛ الاهتشاش في الظاهر، والاشتهاء في الباطن، وكلاهما في الحروف عددهما سواء، إلا أنه قدم الهاء هاهنا وأخر هناك، ليكون فرقًا بين النوعين. فالنفس إذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكر شيء،

(٥) يقال: أكلت خبزَ ملَّة لأن الملّة الخُبْزُ نفسه والرَّماد. العين للخليل. (المجلة).

أحست النفس بذلك، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح، والنفس مسكنها في الرئة، ثم هي منفشة في جميع الجسد، والروح مسكنه في الرأس إلى أصل الأذنين، ومعقلها في الوتين، وهي منفشة في جميع الجسد، والروح فيه حياة، والنفس فيها حياة، فهما يعملان في جميع الجسد لحياتهما، حتى تتحرك الجوارح في جميع الجسد في الظاهر والباطن بالحياتين اللتين وضعتا فيهما، والروح نور فيه روح الحياة، والنفس ريح كدرة جنسها أرضية وفيها روح الحياة. ووضع الرحمة في الكبد، والرأفة في الطحال، والمكر في الكليتين، وعلم الأشياء في الصدر، وجعل مستقر الذهن في الصدر، ثم هو متفش في البدن كله، والذهن يقبل العلم جملة، وقرينه الحفظ، وجعل في ناصيته الفهم، وجعل له طريقًا إلى عين الفؤاد، فالحفظ مستودع العلم، فإذا احتاج الفؤاد إلى شيء لحظ إلى الحفظ، فأبرز الحفظ له علم ذلك الشيء المستودع الذي قد تعلمه، وجعل ماء الذرية في صلبه، فمنه ماء أخذ عليه الميثاق يوم أخرجهم من الظهور، فعرضهم على آدم ﷺ، ومنه ماء لم يؤخذ عليه الميثاق، وجعل مجراه من صلبه إلى نفسه، ووضع الفرح في قلبه، وجعل مجراه إلى صلبه، لتتأدى حرارة ذلك الفرح إلى الصلب، فتذيب ماء الصلب، فبقوة هذا الفرح يخرج ذلك الماء، فيدفق به، وإنما صار دفقًا لقوة الفرح، وهبوب رياحها، وضيق المخرج، فإذا افتقد الإنسان الفرح عجز عن الدفق. فهذا لعامة الآدميين. ثم خص المؤمنين بنور العقل، فجعل مسكنه في الدماغ، وجعل

له بابًا من دماغه إلى صدره، ليشرق شعاعه بين عيني الفؤاد، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمور، فيميز بين الأمور ما حسن منها وما قبح، ووضع نور التوحيد في باطن هذه البضعة، وهي القلب، وفيه نور الحياة فحيي القلب بالله تبارك وتعالى، وفتح عيني الفؤاد، فأشرق نور التوحيد إلى الصدر من باب القلب، فأبصر عينا الفؤاد بنور الحياة التي فيهما نور التوحيد، فوحد الله عز وجل، وعرفه، وميز العقل تلك العلوم التي أعطى الذهن في صدره جملة، فيصيرها شعبًا شعبًا، فصارت معرفة حين انشعبت، فهذا عمل العقل في الصدر.

والهوى أصله من نفس النار، فإذا خرج ذلك النفس من النار، احتمل من ذلك الحفوف من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح، فأورد على النفس. فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة، هاجت بما فيها من الفرح والزينة الموضوعة إلى جانبها في ذلك الوعاء، وهي ريح حارة، فدبت في العروق، فامتلأت العروق منها في أسرع من الطرفة، والعروق مشتملة على جميع الجسد، من القرن إلى القدم، فإذا دبت في العروق، ولذت النفس دبيبها وانفشاشها[٦] في الجسد، وامتلأت النفس لذة، وهشت إلى ذلك الشيء، فتلك شهوتها ولذتها، فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد، فصارت تلك الشهوة نهمة على القلب، والنهمة غلبة الشهوة وغليانها، فإذا غلت الشهوة غلبت على القلب، فيصير القلب

---

(٦) انفتشت الكرة أو القربة: خرج ما فيها من هواء.(المجلة).

منهومًا، وهو أن تقهر القلب حتى تمتهنه، فتستعمله بذلك، فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها في البطن، وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن في الصدر، وجعل المعرفة في القلب، والفهم في الفؤاد، والعقل في الدماغ، والحفظ قرينه، وجعل للشهوة بابًا من مستقره إلى الصدر، يفور دخان تلك الشهوات التي جاء بها الهوى، حتى يتأدى ذلك إلى الصدر، فيحيط بفؤاده، وتبقى عينا الفؤاد في ذلك الدخان، وذلك الدخان اسمه الحمق، قد حال بين عيني الفؤاد وبين النظر إلى نور العقل ماذا يدبر له؟ وكذلك الغضب إذا فار، فهو كالغيم يقف بين عيني الفؤاد حتى يصير العقل منكمنًا[٧]؛ لأن العقل مستقره في الدماغ، وشعاعه مشرق إلى الصدر، فإذا خرج ذلك الغيم (غيم الغضب) من الرئة إلى الصدر، امتلأ الصدر منه، وبقيت عينا الفؤاد في ذلك الغيم؛ لأن شعاع العقل قد انقطع، وحال الغيم بينه وبين الفؤاد، فصار الفؤاد من الكافر في ظلمة الكفر، وهي الغلفة التي ذكرها الله تعالى في التنزيل:

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾

(البقرة: ٨٨)

وقال تعالى:

﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ (المؤمنون: ٦٣)

---

(٧) كمن يكمن كمونًا: توارى.

وصار الفؤاد من المؤمن في دخان الشهوات وغيوم الكبر، فذلك غفلة.

ومن الكبر أصل الغضب، والكبر في النفس لما أحست بما ولي الله تعالى من خلقها، فيبقى ذلك الكبر فيها. فهذه صفة ظاهر الآدمي وباطنه. فوقعت الجباية من الله تعالى والخيرة على هذا الموحد، من كل ألف واحد، وبقي تسع مئة وتسعة وتسعون، رفع البال عنهم، وجعل باله لواحد من كل ألف من الآدميين، فقسم الحظوظ يوم المقادير بالبال، ورفض مَن لم يبال به، فخابوا عن الحظوظ، فلما استخرجهم ذرية من الأصلاب استنطقهم، فاعترف له أهل الحظوظ من باله، طوعًا لقوله عز وجل حين قال:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢)

واعترف من خاب عن الحظوظ، ومَن لم ينل من باله بقوله: (بلى) كرهًا؛ فذلك قوله عز وجل:

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

(آل عمران: ٨٣)

فيصيرهم فريقين: عن اليمين وعن الشمال، ثم قال تعالى: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، أي لا أبالي بمغفرتي أن تنالهم؛ وهؤلاء في النار ولا أبالي، أي ولا أبالي بهؤلاء إلى أين يصيرون؛ ثم ردهم إلى صلب آدم عليه السلام، فيخرجهم في أيام الدنيا للأعمال وإقامة الحجة، فكل مَن وقعت عليه جبايته واختياره له، وصبغ

قلبه، أي غمس قلبه في ماء الرحمة حتى طهره به، وهو قوله عز وجل:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ ﴾

(البقرة: ١٣٨)

ثم أحياه بنور الحياة، وقد كان قبل ذلك بضعة من لحم جوفاء، فلما أحياه بنور الحياة تحرك وفتح عينيه اللتين على الفؤاد، ثم هداه بنوره، وهو نور التوحيد ونور العقل؛ فلما أشرق في صدره، واستقر الفؤاد وهو القلب إلى ذلك النور، فعرف ربه عز وجل بذلك، فذلك قوله عز وجل:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٢)

أي بنور الحياة، ثم قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾

(الأنعام: ١٢٢)

أي نور التوحيد يمشي من ذلك النور في الناس، ثم أوله قلبه بذلك النور إليه، حتى اطمأنت النفس وسكنت إلى أنه وحده لا إله غيره، فعندها نطق اللسان عن طمأنينة النفس وموافقتها للقلب بلا إله إلا الله، وذلك قوله عز وجل:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(يونس: ١٠٠)

وهو قوله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (الفجر: ٢٧)

فلما اطمأنت النفس حين رأت تلك الزينة التي زين العقل بين عيني الفؤاد توحيد الرب عز وجل، وجدت حلاوة الله تعالى، التي وردت على القلب مع نور التوحيد، فلما رأت تلك الزينة وجدت حلاوة الحب الـذي في نور التوحيد، فعندها اطمأنت وسـكنت إلى توحيده، فشهدت بلا إله إلا الله، وذلك قوله عز وجل:

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾

(الحجرات: ٧)

فلمـا نالـت النفس تلـك الزينة كرهـت الكفر والفسـوق والعصيـان، فالمؤمـن إذا أذنب فإنما يعصي بالشـهوة والنهمة وهو كاره للفسـوق والعصيـان، ومع الكراهية يفسـق ويعصي بغفلـة، ولا يقصد الفسـق والعصيان كما قصـد إبليس، فتلك الكراهيـة موجـودة فيه، والشـهوة غالبة عليـه، والكراهية من أجـل التوحيد الـذي فيه، إلا أن القلب مقهور بمـا فيه، والعقل منكمن، والصـدر ممتلئ من دخان تلك الشـهوة، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب؛ لأن العقل قد غاب، والمعرفة قد انفردت، والذهن قد تبدد، والحفظ مع العقل منكمن في الدماغ، والنفس قـد قامت على ذنبها، بمـا وجدت من القوة في تلك الشـهوة، والعـدو يزين ويرجي ويمني المغفـرة، ويدل على التوبة، حتى يجرئه قلبًا ويشجعه.

فلما كان العبد بهذه الصفة، أُمِر بالمجاهدة، فقال عز وجل:

﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾

(الحج: ٧٨)

ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد، أخبرهم عن منته وحسن صنيعه، وبره ولطفه بهم فقال عز وجل:

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

(الحج: ٧٨)

يعلمهم أنه لو لم يجتبهم، ولم يوقع اختياره عليهم، ما كانوا ينالون نور الرحمة ونور المعرفة، وكانوا أسارى في يد العدو، وحطبًا للنار، فأخبرهم أنه اجتباهم، ثم قال عز وجل:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

(الحج: ٧٨)

يعلمهم أني حين ألزمت جوارحكم أمري ونهيي، لم أضيق عليكم حتى تحرجوا، بل أبحت لكم، ووسعت عليكم ما لا يضيق عليكم حتى تفزعوا إلى الحرام، ولم أحملكم فرائضي حملًا تعجزون عنه، ووسعت لكم في كل فريضة ما لم يضق عليكم، وكل شهوة منعتكم عنها، أطلقت لكم من بعضها، فوضعت على كل جارحة من هذه السبع حدًا، ووكلتكم بحفظها. والجوارح السبع هي اللسان، والسمع، والبصر، واليدان، والرجلان، والبطن، والفرج، وجعلت مستقر هذه الشهوة في البطن، فإن اشتهى الكلام خرج سلطان تلك الشهوة إلى الصدر إلى القلب، والقلب أمير على هذه الجوارح، فإذا غلب سلطان الشهوة وحلاوتها ولذتها على القلب، وانكمن سلطان المعرفة وحلاوتها ولذتها في القلب، وسلطان العقل وزينته وبهجته في الدماغ، تحير الذهن عن التدبير، وخمد

نــور العلم فــي الصدر، فظهــرت المعصية على الجــوارح؛ وإذا غلب ســلطان المعرفة ولذتها وحلاوتها، وسلطان العقل وزينته وبهجته، احتد الذهن، واســتنار العلم، وانتشــر وأشرق، وقوي القلــب، فقــام منتصبًا متوجهًا بعين فؤاده إلــى الله تعالى، وجاء المدد والعطاء، وظهــرت العزيمة على ترك المعصية العارضة، فإذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر النفس، ورفض ما عزمت عليه، فانقمعت النفس وذابت، وســكن غليان الشهوة، وماتت اللذة، وســكنت العروق، ودرست صورة تلك المعصية عن الصدر، وتخلص العبد، فأمر بالمجاهدة إذا عرض ذكر شيء علــى الصدر، وقد حــرم الله عز وجل ذلك الشــيء عليه، وذلك أنــه لما عرض الذكر اهتاجت النفس لمــا هاجها الهوى، وأورد العدو الزينة التي وضعت بين يديه، وجعل له السبيل إلى صدره ليزيــن، وتلك الزينــة هي الفرح الــذي وصفنا أنه ببــاب النار، فأصله الفرح، وحشــوه الزينة، وكلاهما من النار خُلِقا، سميت شهوة لاهتشــاش النفس، وهو قول رسول الله ﷺ: «حفت النار بالشــهوات» (صحيــح مســلم عن أنــس بن مالــك: ٢٨٢٣)، ولذلــك قال عمر رضي الله عنه في خطبته: «إن العدو مع الدنيا، وأرصاده مــع الهــوى، ومكــره في الشــهوات». فإنمــا يصير العــدو إلى العبــاد مع أفراح الدنيا وزينتها، ويرصــد الهوى الذي يهيج من الآدمي، ويمكر به إذا اشتهت النفس، وإنما صار مكرًا لأن هذه الشــهوات بعضها مطلق، وبعضها محظور عليه، فيمكر به في المطلــق له، ليجره إلى المحظور عليــه؛ لأن النفس بلهاء، فإذا

مرت في الحلال، فتمكنت منه، سلست في الحرام، إذا لم يكن في القلب ما يقيد النفس عن الحرام، ويقويها حتى لا تسلس، وقوة القلب من النور، فإذا جاهد العبد، فمن جهاده أن يروض نفسه فيؤدبها.

وأدب النفس أن يمنعها الحلال، حتى لا تطمع في الحرام، وذلك أن النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام، فإذا لم يلزمها الصمت فيما لا بد منه، حتى تعتاد السكوت عن الكلام فيما لا بد منه، فقد ماتت شهوة الكلام، فاستراح وقوي على الصدق، فلا يتكلم إلا بحق، فصار سكوته عبادة، وكلامه عبادة؛ لأنه إن نطق نطق بحق، وإن سكت سكت بحق؛ لأنه سكت مخافة الوبال. وكذلك شهوة النظر، فاعتادت النفس لذة رمي البصر حيثما وقع، من غير مبالاة، فإذا لم يلزمها الخفض عما لا بد منه، وهو أن يكون خاشع الطرف، خافض النظر، اعتادت نفسه رمي البصر، لتدرك الأشياء، فإذا أري الحرام لم يملك بصره، لأن شهوة النظر قد أخذت بعينه فملكته، فإذا ألزم عينه الغض عن النظر، ورمى بها إلى الأرض إذا مشى وقام وقعد، ماتت شهوة النظر إلى الأشياء، واعتادت غض البصر وحفظه، فإذا نظر نظر بحق، وإذا غض غض بحق، وصار نظره عبادة، وغضه عبادة. وكذلك شهوة السمع واليدين والرجلين والبطن والفرج. فالمجاهدة هاهنا إذا عزم العبد على مجاهدة النفس، ألزم كل جارحة من هذه الجوارح السبع الفطام عن عملها حلالاً كان أو حرامًا، حتى تموت تلك الشهوة، لأن تلك الشهوة هي

شهوة واحدة، أحل له بعضها، وحرم عليه بعضها، بلوى من الله تعالى لعباده، وتدبيرًا لهم، فما علم أنه يصلح لهم ويصلحون عليه أطلقه لهم؛ وما علم أنه يفسدهم وأنهم يفسدون عليه حظره عليهم، فالمطلق حلال، والمحظور حرام، وذلك مثل الكلام، فهي شهوة واحدة، بعضها حلال، وبعضها حرام، فالاستماع إلى الأصوات بعضه حلال، وبعضه حرام؛ والنظر إلى الأشياء بعضه حلال، وبعضه حرام؛ والأخذ والإعطاء بعضه حلال، وبعضه حرام؛ وكذلك المشي، والبطن والفرج كذلك، وإنما هي شهوة واحدة لكل جارحة، أحل للعبد إمضاء تلك الشهوة، وقضاء تلك النهمة، بصفة وهيئة؛ وحرم عليه بصفة أخرى وهيئة، كالمرأة يطؤها بالنكاح فتحل، ويطؤها بغير نكاح فتحرم عليه؛ وكذلك كل شيء خرج من هذه الجوارح من الحركات، وقد أخذ عليه يوم الميثاق ألا يعمل جارحة إلا بما أطلق له في التنزيل، وعلى ألسنة الرسل، وقبل العبد ذلك يومئذ، فأوثقه بما ضمن، فاقتضاه الوفاء، ولذلك سمي بالعجمية (بنده) لأنه أوثق بما قبل من الطاعة في الأمر والنهي، فإذا وفى له بتلك البندكية[٨]، وفى له بالعهد، وهي الجنة، فقام العبد بمجاهدة النفس عندما يعرض ذكر شهوة محرمة عليه، فعلى العبد أن يجاهدها بقلبه، بما فيه من المعرفة، وتعلقه بالمواعظ التي وعظه الله عز وجل، من الوعد والوعيد، وذكر

(٨) بندكية: مشتقة من كلمة فارسية (بنده) بمعنى خادم، ويقصد بها: حال الطاعة الكاملة. (المجلة).

الموت والحساب والقبر والقيامة، حتى يزجر النفس والعدو، فإذا كان العبد لم يرض نفسه قبل ذلك ولم يؤدبها، ولم يعودها رفض ما ذكرنا بدءًا، من رفض هذه الشهوة المطلقة له حتى تذل وتسكن، ويلزمها خوف الله عز وجل وخشيته، لم يملك نفسه عند ذكر ما يعرض لها، ولم يقدر على تسكينها، بل هي تغلب القلب بما فيها من سلطان الفرح والزينة والشهوة، فيصير القلب أسيرًا للنفس، بعد أن كان أميرًا على النفس؛ لأن إمارة القلب بالمعرفة، وبما أعطي من هذه الأنوار التي وصفنا، من نور العقل، ونور الحفظ، ونور الفهم، ونور العلم، ونور السكينة، فأجمل للعبد في الأمر، فقيل له جاهد في الله عز وجل حق جهاده، فمن لم يرض نفسه قبل ذلك، فإذا جاهد فربما غلب وربما غُلب، فلذلك يوجد العبد مرة طائعًا ومرة عاصيًا في شهوة واحدة، فأما الأكياس[٩] فراضوا أنفسهم، فأدبوها، فامتنعوا من الحلال المطلق لهم، حتى هدأت جوارحهم، وإنما هدأت وسكنت لسكون غليان شهوة النفس، فإذا استعملوها كان القلب أميرًا قاهرًا، فاستعمل تلك الشهوة بما يريه العقل، ويزين له، ويحد له، فيؤدبه بأدب الله عز وجل الذي أدبه، فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال فلا تجاوزه، فهو ينطق، فإذا بلغ في منطقه مكانًا يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذبًا، ملك نفسه، فامتنع وتورع؛ لأن شهوة الكلام قد ماتت منه، فهو يتكلم لله عز وجل وابتغاء مرضاته، وكذلك النظر؛ إذا كان

(٩) جمع كيّس: أي الفطن الذكي.(المجلة).

قــد راض نفســه حتى ماتت منه شــهوة النظر ، ملك نفســه عند الحرام ؛ وملك السمع ، وسائر الجوارح السبع .

وروي لنــا عن رســول الله ﷺ أنه مر برجــل يعبث في صلاته بلحيته ، فقال : لو خشــع قلب هذا لخشــعت جوارحه (الســنن الكبــرى للبيهقــي عن ســعيد بــن المســيب : ٣٥٥٠) ؛ وإنما يخشــع القلــب بما يتجلى له مــن عظمة الله عــز وجل وجلاله ، ويهيــج مــن النفس الخــوف والخشــية والحيــاء منــه ، فيوجل القلب ، فإذا خافت النفس وخشــيت ، فوجل القلب واســتحيا ، ســكنت الجــوارح ، وملــك القلب جوارحــه ، ووقــف بها على الحــدود . فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فورات الشــهوات ، وحلاوتهــا وزينتهــا كالدخــان والغيــم ، فلــم يســتبن إشــراق الأنوار ، وانكمنت الأنوار بما فيها من الســرور والبهجة والزينة والحلاوة واللذة ، فلم يتجل في الصدر نور العظمة والســلطان ، وافتقد صاحبه الخوف والخشــية والحياء أن يعملوا على القلب والنفــس ، فأصابت النفــس نهمتها بما زين لهــا العدو ، ومناها الغرور والأماني الكاذبة ، يعدها ســعة المغفرة ، ووفارة الرحمة ، وفيــض العفــو والتجاوز ، ويحدث نفســه بالتوبــة ، ليتجرأ على الذنــب ، والأكياس بحثــوا عن أصل هذه الأمــور ، ووجدوه على مــا ذكرنا ، فخلصوا إلى الرياضــة ، فقالوا : إنا لما وجدنا النفس تأشــر وتبطــر ، وتســتمر علــى الفرح ، حتــى تصير بحــال من امتلائها بالفرح بالأشــياء كالســكران الذي لا يفيق من سكره ، فكل شــيء نالت مــن الدنيا من حــال أو عرض أو حــال ، مطلق

لهـا أو غير مطلق فرحت، فذلك الفرح سـم يجري في العروق حتى يشتمل على الجسد، يمتلئ القلب من حلاوة ذلك الفرح، ويصير أشـرًا بطرًا، لا يذكر موتًا ولا قيامة ولا حسابًا، ولا شيئًا مـن أهـوال القيامة، فذلك فرح يميت القلب، وتسـتمر النفس عليه وتطيب، وتقوى الشـهوة وتحتد، فهـذا فرح مذموم، ذمه الله عز وجل في تنزيله، فقال:

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾

(الرعد: ٢٦)

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾

(القصص: ٧٦)

ودل على الفرح المحمود، وندب إليه فقال عز وجل:

﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾

(يونس: ٥٨)

فإذا فرح العبد بما فضله الله عز وجل على سائر العبيد، فمَنّ عليـه بالمعرفة والعقل، فاسـتنار قلبه، وطابت نفسـه، فتعاونا على الشكر والحمد، فاستوجب المزيد، فقال عز وجل:

﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾

(إبراهيم: ٧)

ففرحه بذلك يجلب عليه المزيد، فهذا الفرح ترياق، وذلك الفرح سم، فمن شرب الترياق لم يضره السم، وإنما صار سمًا

لأنــه زينة وفرح من جنــس النار وباب النار، وهــو حظ إبليس، فجاء به الهوى مع العدو إلى هذا الآدمي بهذه الأشياء الدنياوية ليبتليــه، ليفرح بهذا أو يســتعمله معرضًــا لاهيًا، أو يقبل على ربه عز وجل وداره التي مهدت له، فقد قال عز وجل في تنزيله:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾

(آل عمران: ١٤)

ثم ذكر النســاء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضــة، والخيــل المســومة، والأنعــام، والحــرث؛ ثم قال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾

(آل عمران: ١٤)

فــإذا فــرح العبد بهــذا المزيــن، الذي قد خلــص حب تلك الزينة وشــهوتها إلى قلبه، وســماه الفرح، فاته حســن المآب، فقد وصف الله عز وجل حسن المآب، فقال:

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ ﴾ (آل عمران: ١٥)

ثم بيّن لمن هي، فقال:

﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

(آل عمران: ١٥)

فوصفها بما فيها، ثم بيّن المتقين مَن هم، فقال عز وجل:

﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران: ١٧)

وقال عز وجل :

﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾

(المنافقون : ٩)

فمَن شغله الفرح بهذه الزينة ، وملك قلبه حب هذه الشهوات ، فقد ألهاه عن ذكر الله عز وجل ، وفاته التقوى والصبر والصدق والقنوت ، وحجزه عن الإنفاق ، ونومه عن الاستغفار بالأسحار . فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوها ، بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم ، فلم يمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لا بد منه ، كهيئة المضطر ، حتى ذبلت النفس ، وطفئت حرارة تلك الشهوات ، ثم زادوها منعًا حتى ذبلت واسترخت ، فكلما منعوها شهوة آتاهم الله على منعها نورًا في القلب ، فقوي القلب ، وضعفت النفس ، وحيي القلب بالله جل ثناؤه ، وماتت النفس عن الشهوات ، حتى امتلأ القلب من الأنوار ، وخلت النفس من الشهوات ، فأشرق الصدر بتلك الأنوار ، فجلب على النفس خوفًا وخشية وحياء ، واستولى على النفس وقهرها ، فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التي أعطيت القلوب ، بما فيها من المعرفة ؛ فعلى حسب تأديب القلب النفس ينال القلب ولاية وسلطانًا ، فإذا أشرقت الأنوار من القلب في الصدر ، وخلا الصدر من دخان الشهوات ، أبرز القلب سلطانه ، فانقادت النفس وسلست ، وألقت بيدها سلمًا ، وانكمن العدو واختشى . فمن يرض نفسه على ما وصفنا ، وأعطاها مناها من الحلال ، وانكمش في أعمال البر مستظهرًا

به، عجل له ثواب أعمال البر في العاجل نورًا، ففي الصدر ذلك النور، وليس له من القوة ما يمنع النفس من قضاء النهمة، فيمضي في الشهوات الحلال بلا نية، فيتعطل، ويبقى بلا حسنة ولا أجر، ومعه فساد الباطن، من حب الدنيا والرغبة والرهبة من المخلوقين، وخوف فوت الرزق، وخوف المخلوقين، والحسد والحقد، وطلب العلو وطلب العز والجاه، وحب الرياسة، وحب الثناء والمدحة، والكبر والفخر، والصلف والغضب، والحمية وسوء الظن، والبخل والمن والأذى، والعجب والاتكال على العمل، ودواهٍ كبيرة، فكم من فعل سيئ يظهر على أركان هذا مع هذه الدواهي، ففساد القلب وخراب الصدر من الفرح بالدنيا، وأحوال النفس كلما ازدادت النفس فرحًا بهذه الأشياء قويت واحتدت، واشتد سلطانها، حتى تصير شرهة أشرة، بطرة مستبدة، فإذا هويت شيئًا من الشهوات لم يملك القلب من أمرها شيئًا، ولم يتورع عن الحرام، وإن تورع عن الحرام لم يتنزه عن الفضول، وإن تنزه عن الفضول، يتناول ما احتاج إليه على غفلة، وفقد النية والحسبة، فإن تناول بنية وحسبة تناول على فقد ذكر المنة، وإن تناول على ذكر المنة، تناول على فقد رؤية المنة واللطف والبر، فهو أبدًا في نقصان، في أي درجة كان؛ لأنه محجوب عن الله عز وجل، وإنما حجبه عن الله عز وجل الفرح بغير الله عز وجل.

فالفرح المحمود على ضربين: فرح بالله عز وجل، وفرح بفضل الله ورحمته، فالفرح بفضل الله ورحمته ذكر النفس معه،

والفرح بالله قد غاب ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس في ذكر مولاه، فقال عز وجل في تنزيله:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ (يونس: ٥٨)

وقال تعالى فيما روي: «قل للصديقين بي فافرحوا، وبذكري فتنعموا» (حلية الأولياء ٨ / ٢١٧، جامع العلوم والحكم ١ / ٤٤٨). وإنما يفرح بذكر الله -عز وجل- حين يرى منته عليه، وإنما يفرح بالله -عز وجل- مَن وصل إلى الله عز وجل، ومَن كان مرعاه بين يديه في ملك من ملكه، والواصلون إلى قرب الله عز وجل مرعاهم تحت العرش في محل القربة.

فالأكياس صاروا إلى الله عز وجل في هذا الطريق، وتوقوا كل فرح، فما فرحوا بشيء من الدنيا، أو بشيء من أعمال البر، وقالوا: إنما فساد قلوبنا من فرح النفس؛ لأن النفس إذا فرحت بشيء استولت على القلب، فلم ينفذ له شيء، فليس بنا التمييز بين الأعمال؛ لأنا لا نسير إلى الله تعالى بالأعمال، إنما نسير إليه بالقلوب نزاهة وطهارة، فإنما يدنس القلب بأفراح النفس؛ وصار القلب محجوبًا عن الله عز وجل، فكانوا يصونون قلوبهم عن الفرح بكل شيء دق أو جل، للضرر الذي يحدث عنه، ومن جهل هذا الباب توقى الحرام والشبهة، وانكمش في أعمال البر، فهو في الظاهر عامر، وفي الباطن خراب؛ لأن النفس شاركت القلب في تدبير العمل، فإذا شاركت أخذت نصيبها، والهوى مقرون بالنفس، فلا يتخلص العمل لصاحبه أبدًا، وإنما صار هذا هكذا، لأن الله عز وجل أَوْلَه قلوب العباد

إلى ألوهيته، فمن صان قلبه عما تورد النفس عليه، بقي قلبه مع الله عــز وجل في جميــع الأحوال، فهو أبدًا والــه بالله عز وجل، والولــه تعلــق القلب به، ومن لم يصن قلبــه حتى أوردت النفس عليه أفراحها التي أورد عليها الهوى من باب النار، فقد صار وله قلبــه إلى الهوى. فالصائن أوله قلبــه الله بأفراحه وحبه. والتارك للصيانــة أوله قلبه الهــوى بأفراحه إلى باب النــار، ولجت تلك الزينــة. فالكيــس لما أبصر هــذا التدبير مــن الله تعالى أنه خلق الآدمي هكذا، وجعل فيه قلبًا ونفسًا، ثم جعل للقلوب محلًا في عظمته، حتى تســير القلوب إلى ذلك المحــل، فيكون مقامها هنــاك حتى إذا صار القلب إلى أن يســتعمل جوارحه اســتعملها بذكــره، مُعظمًــا لشــأنه، حافظًا لحــدوده في جميــع حركات جوارحــه، مؤتمــرًا بأمــره، متناهيًا عــن نهيــه وإن دق، مراعيًا لتدبيــره، راضيًا بحكمه، وذلك كله لقوة ما يلاحظه من عظمته وجلاله بين يديه، فيخشــاه ويتقيه، ويخافه ويرجوه، ويستحي منــه ويهابه ويعظمه، وخلق بباب النــار هذه الأفراح والزينة من النار، وحفت النار بها، ثم خلق الهوى وأصله من الشيطان، فمر بهذه الأفراح إلى نفس هذا الآدمي، حتى تســتعمل هذه الأشياء الملائمة لها، اللينة في ذاتها، الناعمة لجسدها، بذلك الفرح، فابتلى عباده بهذين الفرحين، فرح هناك بين يدي عظمته ومحله القلوب، وفرح هاهنا يورده الهوى، فيزيله الهوى عن ذلك الوله الذي في ذلك المحل، فيرده من هناك إلى ما هاهنا، فمَن التفت عن ذلك الوله إلى هذا الوله، حجب عن الله عز وجل، ونُفي عن

الولـه، ورجع قلبه لما رجعت النفس إلى هـذا الوله الذي أولهه الهوى، فخاب وخسر، وكذلك حذر الله عز وجل عباده فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾

(المنافقون: ٩)

ثم قال:

﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

(المنافقون: ٩)

فلـم يعب المال والولـد، وإنما عاب الولـه بالمال والولد؛ لأن الفـرح والوله بالمال والولد يلهيه عن ذكر الله عز وجل، إذا لـم يكن فيه فرح بفضل الله ورحمته، ودعاه الهوى إلى أن يفرح بالمـال، لزينة الدنيا وبهجتها ولذتها، وبالفرح بالولد، ليلعب به ويلهو، ويتزين به، ويستظهر به ويعتضد، فصار المال والولد فتنة لحبه إياهما، فلم يحب المال من أجل أنه عون له على طاعة الله عـز وجل، ولم يحـب الولد من أجل أنه غصن من شـجرته، خـرج ليعبد مولاه، فيكون له جاهًـا عند الله عز وجل بما يعبده ولـده، ولكنه أحبهما للتكاثر والتفاخـر والتعاضد، تزينًا بهما عند أهل الدنيا، كما قال الله عز وجل في تنزيله:

﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾

(الكهف: ٤٦)

ثم قال عز وجل:

﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا ﴾ (الكهف: ٤٦)

فمن أحبهما للزينة وفرح بهما، كان فرحه للدنيا، وكان وله قلبه إلى الهوى لا إلى الله عز وجل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «ما تحت أديم السماء إله يعبد من دون الله عز وجل، أبغض إلى الله عز وجل من الهوى» (حلية الأولياء عن أبي أمامة). وقال عز وجل:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾

(الجاثية: ٢٣)

فلما اتبعوا الشهوات، ولم يروضوا نفوسهم، انقطعت القلوب عن محل الألوهية إلى الهوى، ففرحت بما أورد الهوى عليها من دنياه، فضاعت الحدود، وذهبت العبودية، وخانوا الأمانة، فماتت قلوبهم عن الحياة بالحي القيوم. وروي عن مالك بن دينار رحمه الله قال: مكتوب في بعض الكتب: «إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين، فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله». فهذه شهوات الدنيا إذا كانت مع الهوى.

فأما إذا تناولها وكان وله قلبه بين يدي الله تعالى في ملك العظمة، كان على سبيل نبي الله تعالى سليمان عليه السلام، ملك الدنيا شرقها وغربها وقلبه أخشع القلوب لله عز وجل، فلم يضره، فقال تعالى:

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

(ص: ٣٩)

ثم قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾

(ص : ٤٠)

فإنما ارتفع الحساب عنه ؛ لأنه تناولها وكان وله قلبه إلى الله عز وجل ، فقد كشفنا عن هذا الأمر بأن قلنا : إن قلب العبد موقوف بين يدي الوله إلى محل العظمة ، وبين الوله إلى الهوى إلى محل باب النار ؛ ففي العظمة أفراح وزينة ، وباب النار أفراح وزينة . فتلك الأفراح بالقلب ، وهذه الأفراح التي بباب النار في النفس ، هو الهوى ، وهو ريح من نفس النار ، والذي يورد هذه الأفراح على القلب ، هو نور المعرفة ونور العقل ، حتى يشخصا ببصر قلبك إلى نور العظمة ، فيرجع عليك مع الأفراح ، فالعباد موقوفون بين هاتين الحالتين ، فالإنسان منذ سقط من بطن أمه غُذِّي بالشهوات ، وكلما نشأ نشأ معه فرح ، وذلك فرح وجود اللذة والنعمة ، وفرح الحياة بما فيها من الزينة والبهجة ؛ فلما شب وعقل قامت عليه الحجة ، فاقتضى الوفاء بالإسلام ، وهو الأمر والنهي ، فأراده قلبًا ، فاستعصت عليه النفس ، فاحتاج إلى مجاهدتها ، حتى يقيم أمر الله عز وجل ، ويفي بالإسلام الذي قبله ، وسيسعد غدًا بجنته وجواره ؛ لأنه دعاه دعوة إلى الله عز وجل حين قال تعالى :

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ **(الذاريات : ٥٠)**

ودعاه إلى دار السلام حين قال :

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ **(يونس : ٢٥)**

فصـــار أهل المجاهدة فرقتين : فرقة حفظت الجوارح ، وأدت الفرائض ، وســـارت إلى الله عز وجل قلبًا ، فلم تعرج على شـــيء حتـــى وصلت إلى الله عز وجل ، وفرقـــة حفظت الجوارح ، وأدت الفرائـــض بجهـــد وتعب ، في كـــد محافظة وحراســـة ، ومع ذلك تخليـــط وتهافـــت في الخطايـــا ، وأدناس لا يســـتطيع أن يســـلم منها ، بمنزلة راع أعطي ســـبعة أغنام ، ليرعاها في ســـبعة أودية ، فـــي تلك الأودية ســـموم قاتلـــة ، وجرف هارية ، وســـباع ضارية ، فهو قائم على أكمة مراقبًا لتلك الأغنام ، فإن رعت ســـما بادرها بالبازهر[١٠] والسمن واللبن ، حتى يردها إلى العافية ؛ وإن تردت في جرف فتكســـرت ، عمد إلى ما تكســـر منهـــا ، فجبرها حتى تجبر ، وإن عرضت لها الســـباع ذاد عنهـــا وطردها ، وما وجدها فريســـة استلبها من مخالبها وأنيابها ، فداواها حتى تبرأ ؛ فوكل العبد بجوارحه الســـبع ليحفظها ، حتـــى لا تتعدى الحدود ، فإنه إذا تعـــدى الحـــدود ، وعصى الله عز وجل ، وخـــان الأمانة ، وظلم نفســـه ، وســـقطت منزلته ، فبعُد عن الله عز وجـــل ، فإذا بعُد عنه تباعد عن الرحمة ، وصار مرفوضًا مخذولًا ، فأسره العدو ، وذهب به إلى النار ؛ لأنه إذا أســـره العدو ذهبت قوة القلب ، واســـتولت النفس ، فمرت في كل شهوة جزافًا ، فلم تبال حلالًا ولا حرامًا ، فهلكت . فهذا شأن العبد في حفظ الجوارح ، قال الله تعالى :

---

(١٠) بازهـــر: أي نـــافي السم، كما يُقال لحجر من الأحجـــار بازهر لهذه العلة – تكملة المعاجم العربية (المجلة).

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾

(المعارج: ٣٢)

ثم قال الله عز وجل:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴾

(المعارج: ٣٥)

حدثنا صالح بن عبد الله، حدثنا جرير، عن ليث، عن ابن أبي نجيح، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: أول ما خلق الله من الإنسان فرجه، فقال له: هذه أمانة خبأتها عندك، فلا ترسل منها شيئًا إلا بحقها، فالفرج أمانة، والبصر أمانة، والسمع أمانة واللسان أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، والبطن أمانة، فإنما بدأ بالفرج، لأن جميع الأفراح تجتمع عند استعماله، وهو أقوى اللذات، وبه دخل النار أهله، وقيل: يا رسول الله، ما يدخل الناس النار؟ قال: الأجوفان: البطن والفرج، وإنما خبأه عند عبده، يعني آدم عليه السلام، لأنه بَدْء الفرح وهو سر الله عز وجل، مقرون بسر القدر، لا ينكشف إلا لأهل الجنة فيها، فأمر بسر العودة لذلك، لأنه خلق مستور، خبأه الله عز وجل عندنا، وأمرنا بحفظه، وسماه سوءة، فحرص العدو على أن يهتك ذلك الستر، حتى يبدو لنا، وقبل ذلك كان مستورًا عن آدم وحواء عليهما السلام، وإنما بدا بالمعصية، قال الله عز وجل:

﴿ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾

(الأعراف: ٢٧)

فإنمـا صير كل جارحة من هذه السـبع أمانـة عندنا ؛ لأن كل جارحة ذات شهوة، ومجمع الشهوات في النفس، فإذا استعمل هذه الشهوات بإذن الله تعالى، وبلغ بها الحد الذي حده له، فهو مطلق له، وإذا تعدى إلى المحظور صار ملومًا، قال الله عز وجل:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾
(النور: ٣٠)

ثم أثنى عليهم فقال:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

(المؤمنون: ٥، ٦)

فأزال الملامة عن اسـتعماله في نكاح أو ملك يمين؛ ثم قال عز وجل: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

(المؤمنون: ٧)

فـذم من جـاوز الحـد، وكذلـك فـي كل جارحة علـى هذه الصفـة؛ فالراعي يحفظ هذه الأغنام حتى يصلح ما فسـد منها، علـى ما وصفنـا، فكذلك الذي وقـف بمجاهدته على نفسـه، يحفظ جوارحه على الحدود، في النظر، والكلام، والاسـتماع، والأخذ، والعطاء، والبطن، والفرج، فإذا غلب أو زل أو نسي أو غفـل، عاد إلـى مركز الطاعة بين يدي الله عز وجل بالاسـتغفار والتوبة؛ فهذا عبد في جهد الاسـتقامة، وباطنه غير مسـتقيم؛ لأن شهوات نفسه قائمة بين يديه، فهو يمنعها بجهد، ومتى ما

غفل عنها زل وسقط ؛ فطريق هذا العبد إلى دار السلام، ليس له وراء هذا مسلك. وأما الذي راض نفسه وأدبها، ومنعها اللذات والشهوات، حتى طهر قلبه، واستوجب القربة بطهارة قلبه، وآثر الفرح بالله على الفرح بما أورده الهوى على نفسه من أفراح الدنيا، فتح الله عز وجل له طريقًا إليه، فسار سيرًا لم يلتفت إلى دار السلام؛ لأنه لما أخذ في الرياضة أخذه بصدق، فلم يقف في الطريق على شيء مفروح به، ولو كان أسنى عمل من الأعمال؛ لأنه إذا توقى الفرح بلذات الدنيا وشهواتها، أمد القلب بالنور، وهان عليه رفض الشهوات، حتى إذا انكمش في أعمال البر، فرح القلب بتلك الأعمال، فينبغي له أن يتوقى تلك الأفراح أيضًا، وينتقل من عمل إلى عمل، ليقطع عن النفس فرحها بذلك العمل؛ لأنها إذا فرحت بعمل من أعمال البر، اطمأنت إلى ذلك العمل، فإذا اطمأنت إلى شيء دون الله عز وجل، فقد ترك سيره إليه، ووقف على ذلك العمل، فاقتضى منه صدق ذلك العمل، فلم يوجد عنده صدقه؛ لأن النفس تأخذ بحظها من ذلك العمل، وهو أن تجد حلاوة حب الثناء والمدحة لذلك العمل، فهو وإن أخفاه وستره علمت نفسه أن الناس يحسون بذلك منه، ويشعرون به، فيأنس بعلم الناس، وملاحظة أعينهم إليه، فلا يصفو له عمل، ولا يقدر أن يخلص بأكثر من هذا، فيقبل منه إذا رد الذي عرض له من ذلك قبول الصادقين، لا قبول الصديقين.

فينبغي للمبتدئ في هذا الأمر أن يبدأ بالصوم، فيصوم شهرين متتابعين، توبة من الله عز وجل، وعد الله عز وجل في تنزيله أن شهرين توبة من الله عز وجل لعبده إذا تابعهما، ثم ينتقل من الصوم إلى الإفطار، فيطعم اليسير من الشيء يتجزأ به، فإن كان في اليوم مرارًا كسرة كسرة، فهو أجود له من أن يملأ بطنه، فيصيرها أكلة، وإنما ذلك محمود عند الأطباء، فتقول أكلة واحدة كي يستمر بها، وذلك لا يدخل في هذا الباب؛ لأن صاحب هذا لا يأكل حتى يتخم، إنما نشير عليه بأن يأكل كسرة كسرة قوتًا، فيداري نفسه على ذلك وبين الأيام دسمًا قليلًا، لئلا تهيج عليه الرياح، وتضطرب العروق، ويقطع الإدام والفواكه عن نفسه. وكذلك في الكسوة، يجتزئ بالدون وما لا بد منه. وكذلك في سائر الأحوال التي للنفس فيها حظ من الفرح واللذة يقطعها عن نفسه، ومجالسة الإخوان، والنظر في الكتب، فهذا كله أفراح النفس وجماعها.

وفي الجملة ينبغي أن يتفقد كل حال وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار، من نعمة أو وجود لذة أو أنس بشيء، فيقطعه عنها، وأنه كلما هويت النفس شيئًا أعطاها فرحت به، فينبغي له أن يمنعها ولو شربة من ماء بارد تريد أن تشربها، فيمنعها في تلك الفورة التي تشوفت لوجود بردها ولذتها، حتى تسكن تلك الفورة، وينغص عليها، ثم يسقيها بعد ذلك حتى يملأها غمًا، ويوقرها همًا؛ لأن من شأنها إذا حبس عنها هذه الأفراح بهذه الأشياء وبهذه الأحوال، فكأنه يصيرها في سجن،

فيتقــرب إلى الله عز وجل بغمها وهمها ، فيجعل الله عز وجل له ثوابه نورًا على القلــب ، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شــهواتها ، وعلى أخذ ســلطانها ، ويســتولي عليها وهي تذل وتذبل ، والعدو يخسأ ويتحير ، ويبطل كيده ومكره ؛ حتى إذا انتهــى إلــى أعمال البــر ، فكل عمل يراها تفــرح به أو تأنس بــه ، يقطع عنها ذلــك العمل ، حتى إنه لو قــرأ القرآن فرجع فيه وغنى ، منعها ذلك ، لأنها متى وجدت شــيئًا مفروحًا به ، أنست واطمأنــت إليــه ، ومــدت القلب إلــى ذلك الأنــس ، فمتى يصل القلــب إلى الأنس بالله عز وجــل ، والطمأنينة إليــه ، والوله إلى عظمته ، وصفاء الحب له ، فهذا صدق المريدين ربهم عز وجل ، والسائرين بالصدق إليه ، والطالبين له في منازل القربة .

فينبغــي أن ينفي كل فرح للنفس فيه نصيب ، حتى يصل إلى ربه تعالى ، فإذا وصل إلى ربه عز وجل امتلأ قلبه به فرحًا وسرورًا ويقينًا ، فكل شــيء مد إليه يدًا من دنيــا أو آخرة لم يضره ؛ لأنه منــه يقبل ، فــإذا قبل منه حمده عليه وشــكره ، وكانت جوارحه مســتقيمة ، حافظــة للحــدود ، معتصمــة بخوف الله عــز وجل ، ولســانه ذاكر ، وبدنه شــاكر صابــر ؛ لأنه امتلأ قلبــه بالله تعالى فرحًــا ، فلم تجد أفــراح الدنيا فيــه مكانًا ، فإذا فرح بشــيء من الدنيــا ، فإنما يفــرح ببر الله تعالــى له بذلك وتقديــره وتدبيره ولطفــه ، ولا يخــون أمانتــه ، ولا يكفر نعمه ، ولا ينســى ذكره ، لا يحــدث عيبًــا ، فاســتعمال جوارحه فــي ذلك الشــيء بمنزلة رجل شــرب ترياقًا ، فامتلأت عروقه منه ، فإن مد يده إلى حية أو

عقرب لم يضره سمها ؛ لأنه لم يجدِ السم مسلكًا إلى عروقه ، فإذا لم يجد الترياق وجد السم مسلكًا إلى العروق ، فجمد الدم الذي في العروق من ذلك السم فمات ، فكذلك أفراح الدنيا تجري في العروق مجرى الدم ، فتشمل الجوارح كلها ، فتأخذ القلب فتسبيه ، فإذا دخلت الأنوار القلب بما راض نفسه بهذه الرياضة التي ذكرنا ، عجل له ثواب رياضته ، فانشرح الصدر وانفسح ، فصارت الآخرة له كالمعاينة ، ولاحظ الملكوت بتلك العين عين الفؤاد ، في فسحة ذلك النور المشرق في الصدر ، فرأى شأنًا عجيبًا من عظمة الله عز وجل وجلاله ، ورأى من لطف الله عز وجل بالعبيد ، وبره بهم ، وإحسانه إليهم ، ومننه عليهم ، فامتلأ القلب به فرحًا ، وجرت الأفراح فيِ العروق ، حتى امتلأت ، فمتى تجد بعد ذلك أفراح الدنيا مسلكا إلى عروقه ؟ حتى يكون لذلك الفرح سلطان يأخذ القلب فيسبيه ، فعندها يمد يده إلى ما أحل له من الطعام والشراب واللباس والنكاح ، والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه ، فيقبله من ربه عز وجل على تدبيره الذي دبر له ، فإن أخذ أخذ بحق ، وإن أمسك أمسك بحق ، وإن أعطى أعطى بحق ، وقلبه حر من رق النفس وفتنته ، ذلك الشيء وذلك العمل بمنزلة رجل له ملء بيت دنانير يملكها ، وإن أعطاه رجل صرة فيها عشرة دنانير ، لم يعمل في قلبه فرح تلك العطية عملا يؤثر أثرًا ، ولا يستبين ، وإن كان عنده تلك الصرة ، فسقطت منه حتى تُويت ، لم يبد عليه ضرر ذلك ، ولا عمل على قلبه حزن ذلك ، ولا هو فرح بما أصاب ، ولا حزن

علــى ما تُوي وذهب ، لامتلاء قلبه بفرح تلك الدنانير ، التي هي ملء بيت ؛ فكذلك مَن فرح قلبه بالله عز وجل ، استغنى بالله عز وجــل ، فلا تملك قلبه بعــد ذلك أفراح الدنيا ؛ لأنه لا يســتغني بالدنيا ، إنما غناه بالله تعالى ؛ وهذا تأويل قول رســول الله ﷺ : «ليــس الغنى عن كثــرة العرض ، إنما الغنى غنــى النفس» (رواه البخاري ومســلم عن أبي هريرة) . فالنفس إذا استغنت ، فغناها بغنى القلب المشــرق نوره في صــدره ، فإذا اطمأنت النفس بما أشــرق فيها من النور بالله عز وجل ، أشــرق النور فيه إلى الله عز وجل ، فقد رق عندها نوال الدنيا من أولها إلى آخرها ، في جنب مــا عاين القلب ، وأورد من حياة على النفس ؛ فهذا شــأن النفس إذا وصلــت إلى ربهــا عز وجل بوصول القلب ، فإنما قلنا : إنه لا يدع لنفسه قرارًا على شيء من أعمال البر ، فكلما فرحت النفس بشيء من الدنيا ، أو بعمل من أعمال البر ، قطع عنها ذلك الفرح حتى يغمها ، حتى يطهر القلب من أفراح النفس ، فهناك يرحم ؛ لأنــه إذا وصل إلى هــذه المرتبة ، بقي بلا أنس ولا فرح ، قد قطع عن نفســه أفراح الدين والدنيا ، فهــو يحفظ جوارحه عن كل ما نهى الله عز وجل ، وعن كل شــيء من الفضول ، فيقيم الفرائض والسنن ، لا يزيد عليها ، كفى بهذا شغلًا ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : «أد مــا افترض الله عليك ، تكن مــن أعبد الناس ؛ واجتنب محــارم الله عــز وجل ، تكــن مــن أورع الناس ؛ وأحــب للناس ما تحب لنفســك تكن مؤمنًــا» (رواه أبــو داود والترمذي عن أبي هريــرة بنحــوه) . فهذا المؤمن المســتكمل المســتحق لاســم

الإِيمان عند إقامة هذه الخصال الثلاث، فكفى بهذا شغلًا، فهذا عبـد صدق الله عز وجل في العبودية، وأما سـائر الناس من غير أهـل هذه الصفة، فهم متخبطون بطالـون، يعبدون الله عز وجل على (الشـايد بود)[11]، قد طابت أنفسـهم ولـذات أهوائهم.

وروي أن داود عليه السلام قـال: يا رب، أمرتني أن أطهر بدني بالصوم والصلاة، فبِمَ أطهر قلبي؟ قال: بالهموم والغموم يا داود، فإنما تدنس القلب بالأفراح، أفراح النفس، فلا يطهر بمثل عمر نوح عليه السلام صومًا وصـلاة، وإنما يطهر الصوم والصلاة أدناس الأركان بالمعصية، وإنمـا يطهر القلب ما يزيل عنه أدناس الفرح، وهو الهمـوم والغموم، فلمـا منعت النفس شـهواتها ذبلت، وطفئ تلظـي شـهواتها، وفـوران دخان هواهـا، فزالت أدنـاس الفرح مـن القلب، بذهاب الفرح، وطهـر بالأنوار التي ولجت القلب، بمنزلـة سـحائب تحجبك بظلمتهـا، وبما فيها مـن الغبرة عن الشمس، فلما انقشعت السحائب وتبددت، أشرقت الشمس، فعندها يصلح لقرب الله عز وجل، قال الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾
(المائدة: ٣٥)

فالوسـيلة والوصيلة بمعنى واحد، إلا أن الوصيلة أن يوصل الشـيء بالشيء، فلما صار الأمر إلى ذكر الله عز وجل، أخرجوه مخرج القربة، فقيل وسيلة، بدل بالسين صادًا، وبالصاد سينًا،

---

(١١) كلمة بالفارسية معناها يمكن أن يكون.

فيكون له من الألفاظ أشـرفها وأعلاها وأنزهها ، فأمرهم بابتغاء الوسيلة إليه بالتقوى ؛ فجماع التقوى هاهنا هو ما وصفناه ، إلى أن يتقي الفَرْح في كل شيء ، تجد النفس في ذلك الشيء فرحًا : مـن كلام ، أو صيـام ، أو قيام ، أو قعود ، أو ذهاب ، أو مشـي ، أو لبـاس ، أو طعـام ، أو شـراب ، أو صاحـب ، أو أهـل ، أو ولد ، إلا فيمـا لا بد منه كالمضطـر ، فإذا فعله على تلك الهيئة ، فعله مع الاهتمـام والاغتمام ، أو مـع الحزن ؛ لأنك تجـد ذلك الفعل لله عـز وجـل خالصًا ، لا تأخـذ النفس من ذلك الفعـل لله حصتها ، فأنت تفعل ذلك الذي لا بد منه ، فتكسر عليها فرحها ونشاطها لذلك التخليط ، الذي ترى في أمرك من قبلها ، حتى يدوم عليها الغـم والهـم ، فجهاد الصديقيـن في هذا أن يلقوا الفرح بشـيء سواه ، حتى أوصلهم إلى نفسه ، بعد أن امتلأت صدورهم غمومًا وهمومًـا ، فلما أوصلهم قربهم ، ومكن لهـم بين يديه ، وملأهم فرحًا ، فاشـتاقوا إليه ، فقربهم ، فازدادوا شـوقًا كلما زاد قربهم اشتد شـوقهم فازدادوا حتى عطشت قلوبهم ، وامتلأت قلوبهم أحزانًـا ، حتى قطعوا الحياة والعمر بالأحزان . وروي في الخبر ، قال : « كان رسول الله ﷺ دائم الأحزان والفكر » . وروي عنه ﷺ أنه قال : «ما عبد الله عز وجل بمثل طول الحزن» (روي هذا عن الحسـن في الزهد والرقائق ١ / ٤١ لابن المبارك وشـرح السنة للبغـوي ١ / ١٠٧ وروي عـن الثـوري في معجم ابـن المقرئ . ١٤ / ٣٧٤) . وحـق لمثـل هذا أن يحزن ، فإنـه وصل بقلبه إلى رب ماجـد كريم ، فرأى عظمة وجلالة ، وعطفًـا وبرًا ، ونال منه

حبًا، فلم يشف الوصول إليه بتلك القربة وذلك الفرح به، دون رؤيته في الجنة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن من أمن الناس بوائقه، والورع سيد العمل، من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله عز وجل إذا خلا بها، لم يعبأ الله بسائر عمله شيئًا» (حلية الأولياء بنحوه). فذلك مخافة الله عز وجل في السر والعلانية، والاقتصاد في الفقر والغنى، والصدق عند الرضا والسخط؛ إلا أن المؤمن حاكم على نفسه، يرضى للناس ما يرضى لنفسه؛ والمؤمن حسن الخلق، وأحب الخَلق إلى الله عز وجل أحسنهم خلقًا، وينال بحسن خلقه درجة الصائم القائم وهو راقد على فراشه؛ لأنه قد رفع لقلبه علم، فهو يشهد مشاهد القيامة بقلبه، يعد نفسه ضيفًا في بيته، وروحه عارية في بدنه، ليس بالمؤمن حقًا مَن لم يكن حملانه على نفسه، الناس منه في عفاء، وهو من نفسه في عناء، رحيم في طاعة الله عز وجل، بخيل على دينه، حيي مطواع، وأول ما فات ابن آدم من دين الحياء، خاشع القلب لله عز وجل، متواضع قد برئ من الكبر، قائم على قدميه، ينظر إلى الليل والنهار يعلم أنهما في هدم عمره، لا يركن إلى الدنيا ركون الجاهل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا جرم أنه إذا خلف الدنيا خلف الهموم والأحزان، ولا حزن على المؤمن بعد الموت، بل فرحه وسروره مقيم بعد الموت.

حدثنا عبد الجبار بن العلاء بن يوسف بن عطية، قال: سمعت ثابتًا البناني -رحمه الله تعالى- يذكر عن أنس رضي الله عنه، قال: بينما

رســول الله ﷺ يمشي إذ اســتقبله رجل شاب من الأنصار، فقال لــه النبي ﷺ : كيف أصبحــت يا حارثة؟ قــال: أصبحت مؤمنًا بــالله عز وجل حقًا. قال: انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقته، قال: يا رســول الله، عزفت نفســي عن الدنيا، فأســهرت ليلي، وأظمأت نهــاري، فكأني بعرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها، قال: أبصرت فالزم. عبد نور الله الإيمان في قلبه، فقال يا رسول الله، ادع الله لي بالشــهادة، فدعا له رســول الله ﷺ، فنودي يومًا فــي الخيل، فكان أول فارس استشــهد، وأول فارس ركب، فبلغ أمه فجاءت إلى رســول الله ﷺ، فقالت: يا رســول الله، أخبرني عــن ابني إن يــك في الجنة لــم أبك عليه، ولم أحــزن، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت في الدنيا. فقال: يا أم الحارث، إنها ليست جنة، ولكنها جنان، والحارث في الفردوس الأعلى. فرجعــت وهــي تضحك وتقــول: بخ بــخ لك يا حارثة(شــعب الإيمان: ١٠١٠٦).

قــال أبو عبــد الله رحمه الله تعالى، فإنما وصــل العبد لله هذه المنزلة بتلك الأنوار، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «هذا عبد نوّر الله عز وجل الإيمان في قلبه».

حدثنا أبي حدثنا محمد بن الحســن المكي، عن عبد العزيز بن أبي رواد، يرفعه إلى رسول الله ﷺ، بمثل حديث يوسف، إلا أنه قال: «لكأني أنظر إلى ربي عز وجل فوق عرشه، يقضي بين خلقه». فقد أعلم أن الإيمان في القلب، ولا يستنير في الصدر،

لإحاطة غيوم الشهوات، ورين الذنوب بالقلب في الصدر. حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة، فإذا جاهدها وراضها حتى ينقطع دخان شهواتها، وفوران الهوى، جاءت الأنوار مددًا للإيمان الذي في القلب، فصار القلب ذا شعاع وإشراق في الصدر. فإذا أشرق في صدره، فذلك عبد نور الله عز وجل الإيمان في قلبه، فلما نوره استنار في صدره، فصدرت الأمور إلى الجوارح من ذلك النور، مع الخوف والخشية والحياء، فعملت الجوارح على الحدود والمقدار الذي أمر، مع البهاء والزينة.

وروي عن رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا عاد نكت أخرى، فلا يزال ينكت حتى يسود القلب كله، فإذا تاب ونزع صقل قلبه» (حلية الأولياء من كلام ميمون بن مهران: ٤ / ٨٩). فإنما ينصقل بالأنوار حتى يتجلى كالمرآة المجلية، فإذا صار كالمرآة تراءت له الدنيا على هيئتها، والآخرة على هيئتها والملكوت، فإذا لاحظ في الملكوت عظمة الله عز وجل جلاله، صارت الأنوار كلها نورًا واحدًا، فامتلأ الصدر شعاعًا، بمنزلة رجل نظر في المرآة، فأبصر صورة نفسه فيها، وأبصر ما بين يديه وما خلفه فيها، فإذا قابل بها عين الشمس، وقع الشعاع في البيت، فأشرق البيت من تقابل النورين: نور عين الشمس، ونور المرآة، فكذلك القلب إذا جلى فانجلى، فلاحظ العظمة والجلال، تجلت العظمة بين الحجاب لذلك القلب المجلي؛ لأنه طاهر من أدناس المعاصي،

وأدناس الشهوات، وأدناس الهوى، والتقى النوران فامتلأ القلب شعاعًا، فهناك تموت النفس ويخشع القلب.

حدثنا سفيان بن وكيع، وقتيبة بن سعيد، قالا: حدثنا عبد الوهاب الثقفي، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن النعمان بن بشير ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنه إذا تجلى الله عز وجل لشيء من خلقه خشع له؛ ولذلك لما تجلى لطور سينا، صارت البقعة التي وقع التجلي عليها كالهباء المبثوث، وما في جوارها ساخت في الأرض، فهي تذهب في تلك البحار التي من وراء الدنيا، إلى يوم القيامة، فلا تستقر، وما في جوارها أبعد منه، صارت ثماني فلق، فطارت هربًا وفرقًا، حتى وقعت أربعة منها في حرم الله عز وجل، وأربعة في حرم الرسول ﷺ بالمدينة، وخر موسى عليه الصلاة والسلام صعقًا، فصارت الأرض كلها ذات بهجة وزينة، حتى ظهرت الكنوز على ظهر الأرض، وأبصرت العميان، وصح كل مريض، وبرئ كل زمين، وانفتحت الأرحام، فحملت كل عقيم، وحلى كل أجاج».(١٢)

فأعلم في هذا الحديث أن الشمس إنما ذهب ضوءها خشعة لله عز وجل، وخشوعها خروجها من سربالها التي سربلت به من نور العرش، فتهافت الضوء؛ فكذلك النفس إذا أحست بالتجلي خشعت له عز وجل، وخرجت من جميع شهواتها

(١٢) رواه البخاري ومسلم مختصرًا بلفظ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلّوا وادعوا الله».والزيادة غير موجودة.

إلى الله عز وجل، وتهافتت أفراحها، وطردت الشـرور، فصارت ذبلة كالميتة، فتخلص القلب من ذلك، وتخلص من أدناسـها، فوجد السـبيل إلى الله عـز وجل، بما فيه مـن المعرفة والعقل، فقرب ثم قرب، ثم زيد نورًا، حتى مكن له بين يديه، فهو يعبده كأنه يراه، وهو قول جبريل عليه السلام: «ما الإحسـان؟ قال: أن تعبد الله عـز وجل كأنك تراه» (البخاري ومسـلم). فحسـن العبادة مع الترائي، فإذا كان محجوبًا فإنه يعبد الله ولا يلتمس الحسـن والزينـة في العبـادة، بمنزلة رجل دعاه الملـك ليقطع ثوبًا بين يديـه ويخيطـه، فلا يتـرك هذا الصانـع من خفة اليد، وحسـن الابتـداء، ووجازة الفعـل، وإحكام الخياطـة وزينتها، إلا صنعه بين يديه، ويريد أن يتجلى بذلك عنده، فيكتسب به جاهًا عنده ومنزلـة؛ والآخر رجـل دعاه الملك، وقال: اذهـب بهذا الثوب فاقطعـه وخطه قميصًا، واحمله إليّ، حتى أنظر إليه، فلما غاب عنـه ترك خفة اليد، وحسـن الابتداء، ووجـازة الفعل، وإحكام الخياطـة، وأتقنه وزينه؛ لأنه ذاكر العـرض عليه؛ والآخر دعاه الملـك فقـال: اذهب بهذا الثـوب فاقطعه وخطـه، وأنفذه إلى فـلان الراعي، فلما غاب عنه رفع عنه باله، فكيف قطعه وخاطه جوّزه، لأنه لم يشـعر برؤية الملك، ولا ذكر العرض عليه، وإن مـا به ارتفاع العمـل، فيقول: قد عملت، وأخـذ الأجرة؛ وإنما جرّأه على ذلك غفلته عن رؤية الملك، وعن العرض عليه.

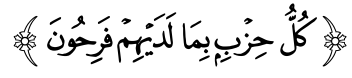
فعمـال الله عز وجل ثلاثة أصناف، عامل يعمل على الترائي، فلا يترك زينة، ولا مبادرة، ولا سـرعة، ولا خفة يد، ولا طهارة،

ولا تعظيمًا، ولا وجازة، ولا مسابقة إلا جاء بها، يريد أن يتحلى بذلـك عند مولاه عز وجـل، وعامل ليس له هـذا الترائي، وهو محجوب القلب عنه بالشهوات، صادق في ابتغاء مرضاته، ذاكر للعرض عليه، فلا يتزين، ولا يبادر، ولا يعظم، ولا يسـارع، ولا يوجز، ولا يسـابق، ولكنه يعمل على الأحكام وحفظ الحدود، وإتمـام الأمـر بالأركان. وعامـل لا يذكر رؤية ربـه عز وجل أنه ناظـر إليـه في هـذا العمـل، ولا هو ذاكـر لعرض الأعمـال يوم القيامـة، فهو يعمل على الغفلة علـى التجويز، فإنما يعمل كل صنف منهم على نوره الذي في صدره.

فجملـة ما وصفنا من أمر السـير إلـى الله تعالى أن يتقي فرح النفـس، أن يتركها حتى تفرح بشـيء من أحوالهـا، أو بتناولها من الدنيـا وأعمال البر، كلما ظهر فرحهـا نغص عليها بالمنع لهـا، والانتقال عنه حتى تملأ غمًـا، فيذوب الفرح الذي يتأدى إلـى القلب، ويظهر النـور، ويظهر في ذلك النور الفرح بالله عز وجل، لأن ذاك النور يؤديه إلى صفات الله عز وجل، وإلى عظمته وجلالـه، وجماله وكبريائه، وبهائه وسـؤدده، وكرمه وجوده، وبره ولطفه، ومننه وإحسـانه ورحمته؛ فمُحال أن يعتقد القلب هـذا الفـرح حتى يدوم له ذلـك، وتزول عنه أفـراح النفس، ثم يصيـر في فرحه بالله عز وجـل حزينًا؛ لأنه محبـوس عنه برمق الحيـاة فـي دار الدنيا، مشـتاق إلـى ربه عز وجل، قـد أنس به، واشـتاق إلى لقائه، واسـتوحش من الدنيـا وأهلها، وهمته ذكر الله، وعبودته شهوته، وموته راحته ويوم عيده.

وتحقيــق مــا وصفنا من ضرر فــرح النفــس، أن الله عز وجل حرّم المعازف والخمر على لســان نبيه ﷺ، وما نطق به الوحي في شــأن الخمر، وذلك أن الله عز وجل لما خلق الفرح، وجعل لــه بابًا، فلما خلــق الجنة، خرجت الأغراس مــن باب الرحمة، وخــرج غرس العنب من باب الفرح، فلذلك أوّل ما أكل آدم ﷺ حين دخلها العنب، فامتلأ فرحًا.

وروي عــن رســول الله ﷺ أنه ســئل: «ما أول مــا يأكل أهل الجنــة من الجنة؟ قال: العنــب»[13]: وأول ما أكل آدم العنب، فامتــلأ فرحًا، ووضع من الفرح في تلك النــار التي فيها الزينة ببــاب النــار التي ســميت شــهوات، فجعــل ذلــك الفرح حظ إبليــس، حتى يأخذه فيضعه في الأشــياء التــي يغوي الآدميين بها، فلما أضل إبليس المشركين بذلك الفرح، دخل الأشجار وكل معبــود مــن دون الله عز وجل، فصوّت منها بذلك الفرح، فكل مَن يتبع صوته، ســبى ذلك الفرح قلبــه، حتى يجيبه إلى الشرك وإلى عبادته، فهو يرى أنه يعبد الشجرة والوثن، وإنما يعبد الطاغــوت، وإبليس طغى حتى بلغ غايــة الطغيان، فقيل طاغوت، وذلك قول الله عز وجل:



(المؤمنون: ٥٣)

---

(١٣) سنن النسائي بلفظ:زيادة كبد الحوت وليس العنب رقم: ٨١٩٧.

فذلـك الفرح لكل حزب من الذي أعطى إبليس، حتى أورده على قلوبهم بصوته، وذلك قوله عز وجل:

﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾

(الإسراء: ٦٤)

وصوته مع ذلك الفـرح، ولولا ذلك ما أجابوه، فهم فرحون بأديانهـم، وإنمـا يفرحـون بالله عز وجـل، ولكن غيـر مقبول منهم، وهم يحسبون أنهم مهتدون بذلك الفرح، لأنهم تناولوه مـن إبليس، لا من هدايـة الله عز وجل ومعرفته، وإنما وصل إلى غواية آدم ﷺ، بما استفرحوا بصوته من الفرح.

وروي في الخبر أنه لما دخل الجنة صوت من مزمار له، حتى كادت حـواء تطير من الفـرح، فقالت: ما هـذا الصوت؟ قال: لسروري بمكانكما، ثم قلب المزمار، فناح نياحة أخذ بقلبها، حتـى امتلأت حواء خوفا، فقالت: ما هـذا الصوت؟ فقال حزنا عليكمـا أن تموتـا أو تخرجا منهـا. فهناك دلهما على شـجرة الخلد، لكي يـأكلا منها، فيخلدا فيها. ففي وقت الفرح دلهما على شـجرة الخلد، ولتخويف الزوال دلاهما بغرور، حتى ذاقا الشجرة، فلما صارا محجوبين بالهَمِّ، فلما ذاقا عريا من اللباس، وانكشـف الغطاء عن الذنب، فوليا في الجنة هاربين، فبالفرح، خلص العدو إليه، حتى أكل من الشجرة، فصرعه. وحرم الله عز وجل الخمر لما فيها من ذلك الفرح؛ لأن إبليس لما سرق العنب من سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، وافتقده نوح عليه السلام، جاءت الملائكـة، حتى يقضي جبريل عليه السلام بينه وبين نبي الله ﷺ على

الثلث والثلثين، فكل ما وجده نيًا أو مطبوخًا فيه بقية من حظه لم تأكله النار، خاض فيه يديه بفرحه الذي أعطي، حتى يتحول ذلك الفرح من يده إلى ذلك الشراب، وإنما يزبد ويغلي بحرارة يده الملعونة خلق من النار، فإذا شربه الشارب، وقد تحول ذلك الفرح من يده في ذلك الشراب، دب في هذا الشارب، وانكمن العقل، لتدنس يده ورجاسته، فشاربه يحتمل مرارته، وذهاب عقله، وتلف ماله، وألم جسده، والآفات التي تحل به، فإنما يحتمل ذلك كله من أجل ذلك الفرح الذي دب فيه، حتى يصده عن ذكر الله عز وجل وعن الصلاة، ووجد سبيلًا إلى أن يحرش بينهم، ويغري بعضهم ببعض، فحرمه الله عز وجل، لئلا يفرح بفرح هو حظ إبليس لعنه الله تعالى.

فكذلك أصوات المعازف والملاهي، تلك الأصوات ممزوجة بالفرح الذي بيده، فلا يلتذ المستمع إلا بما يمازجه من الفرح الذي بيد العدو، فإذا مازجه وسمع الآدمي، هاج بالفرح منه، ودب في جميع جسده، وطرب حتى وثب ورقص كالقرد، فحرم الله عز وجل هذه المعازف، للفرح الممازج من حظ العدو فيها، وأطلق هذه الأشياء التي لا غنية بالآدمي عنها، مما هو له غذاء أو معاش، ثم حذره أن يلهيه ذلك الفرح حتى يأشر ويبطر، ويتعدى الحدود. فالكيس حسم باب الفرح عن نفسه، من كل حلال أو حرام، ومن جميع أعمال البر، مما يجد في النفس استرواحًا إليه. وبه فرحا، حتى ملأها غمًا، حتى طهر قلبه. وتجلت فيه أنوار العزيز الماجد الكريم، على ما ذكرنا

بديًّا، وعريت الملائكة من الشهوات والجوارح والأجسام والأجواف والضرورات، فلا يحتاجون إلى طعام ولا شراب، ولا كسوة ولا كُن يستكنونه من الحر والبرد، فنجت من فتن الآدميين وضروراتهم، ومكايد العدو، وأظهر خلقهم من التدبير بقوله (كن). وعاملهم من ملك الجبروت، ومقاومتهم في ملك الجلال، وأظهر خلقنا من يده، وعاملنا من ملك الرأفة والرحمة، ومقاومنا في ملك المحبة؛ فالملائكة مجبورون على حال واحد، لا ينفكون ولا ينقلون عنها. والآدميون خدم بين يديه عز وجل، يتقلبون من حال إلى حال، وكل أحوالهم خدمة، وإنما صار هكذا لأن المعرفة من الملائكة على الأبصار، والمعرفة من الأميين على القلوب، والقلب أمير على الجوارح، فحركات الجوارح كلها من تقلب القلب بمشيئاته، ومشيئاته بمشيئات ربه عز وجل، فأي جارحة حركها فإنما محركها قلبه، والقلب شاخص إلى الله عز وجل بولهه في تلك الحركة، فتلك خدمة منه له، مأخوذة هذه اللفظة من خدمة الساق، لأن الآدمي إذا قام منتصبًا، قام على خدمة ساقه، فهو بالقلب قائم بين يدي ربه عز وجل، ومنه تتأدى الحركات إلى الجوارح، حتى تظهر على الجوارح، فقيامه ونهوضه إلى ربه عز وجل بتلك الحركة هو خدمته، وهو النية التي ينوي بها العبد في كل عمل، والنية النهوض، يُقال في اللغة. ناء ينوء، أي نهض ينهض، فالقلب يرتحل إلى الله عز وجل، حتى يصل إلى سدرة المنتهى إن كان له طريق، فإن حبس في الطريق فللتهمة احتبس، ولسوء الأدب

منع وانسد الطريق، فعلى أي حال كان، فقد نهض من مكانه إن وجد الطريق أو لم يجد. ويقول للجارحة التي تعمل ذلك العمل تحركي بذلك العمل في حركاتك، وأنفذي العمل على أثري، فإني واقف بالباب، أبتغي من ربي عز وجل مرضاته، بما ينفذ إليه على أثري، فهذه النية.

ثم الناس في نياتهم على درجات، على تفاوت عقولهم؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ، فيما يروى عنه، قال: «يعملون الناس الخير ويعطون أجورهم على قدر عقولهم». وروي عن الله عز وجل قال: «يا موسى، إنما أجزي الناس على قدر عقولهم» (مسند الحارث عن معاوية بن قرة: ٨١٧). قال له قائل: صِف لنا شيئًا منه، كيف تفاوت على قدر العقول؟ قال: مثل رجل دخل المسجد فوجد الصف الأول قد قام، فوقف في الصف الثاني، فقد سقط من درجة الصف الأول، ودرجته أنه جاء عن رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول، وجاء أن الرحمة تنزل على الإمام مئة رحمة، فيأخذ مَن بحياله خلفه مثل ما للإمام، ثم الذي عن يمينه إلى منتهى خمسة وسبعين، ثم الذي عن يساره خمسون، فمن دخل المسجد فوقف في الصف الثاني عن غفلة لم ينل من صلاة الرب عز وجل شيئًا، ولا من هذه الرحمة التي وصفت عن ابن عباس رضي الله عنه، فمن دخل فنوى أني لو وجدت مكانًا لدخلت في الصف الأول، فبهذه النية استوى هو بالصف الأول» (رواه ابن ماجه عن البراء بن عازب: ٩٩٧) وله مثل أجورهم لما نوى، كأنه فيهم. ثم إذا

تمنـى أن يدخل في الصف الأول، ونـوى ذلك، وامتنع وتحرج مخافة أن يؤذي مسـلمًا، أو يضيق عليه، يضاعف أجره على مَن في الصف الأول، بما اتقى أذى المسلم.

كذلـك روي عـن رسـول الله ﷺ في شـأن النية، وفي شـأن التقوى؛ عن أبي كبشـة الأنصاري رضي الله عنه، أنه سـمع رسول الله ﷺ يقـول: أحدثكم حديثًـا فاحفظوه، إنما الدنيـا أربعة نفر: عبد رزقـه الله عـز وجل فيهـا مالا وعلمًـا، فهو يتقـي الله عز وجل، ويصـل رحمـه فيه، ويعطـي لله عز وجل منه حقـه، فهو بأفضل المنـازل. وعبـد رزقه الله عز وجـل علمًا، ولم يرزقـه مالا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان، فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله عز وجل مالا، ولم يرزقه علمًا، فهو يتخبط فـي ماله بغير علم، فـلا يتقي فيه ربًا، ولا يصـل فيه رحمًا، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل.

وعبـد لم يرزقه الله عز وجل مالا ولا علمًا، فهو يقول: لو أن لي مالا عملت بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء (المعجم الكبير للطبراني: ٨٦٨).

حدثنا الفضل بن محمد، حدثنا زريق بن الورد الرقي، حدثنا أسـلم بن سـالم، عن عبـد الغفار بـن ميمون، عن عبـد الملك الجزري، قال: قال رسـول الله ﷺ: «مَن ترك الصلاة في الصف الأول مخافة أن يؤذي مسـلمًا أو يزاحم أحدًا، فصلى في الصف الثانـي أو الثالـث، أضعف الله عز وجل أجـره على مَن صلى في الصف الأول». فهذا بعقله نال زيادة الثواب على الصف الأول،

والآخر بغفلته وجهله سقط عن هذا الثواب. فهذا تفسير: «إنما أجزى الناس على قدر عقولهم». ولذلك قال رسول الله ﷺ، فيما يروى عنه: «لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله»(شعب الإيمان للبيهقي عن ابن عمر: ٤٣٢٠).

وحدثني بذلك أبي رحمه الله، حدثنا جندل بن واثق الكوفي، حدثنا عبد الله بن عمر الرقي، عن إسحاق بن أبي فروة، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ.

فالصادقون المخلطون قلوبهم محجوبة بالشهوات، فنيتهم النهوض بالقلب، إذا نهضوا لم يجدوا منفذًا، فيقفون حيث بلغوا من الجو. وأما الذين فتح لهم في الغيب، فإن قلوبهم تنهض إلى العلا، حتى تبلغ مقامه، فهناك يبتغي مرضاة ربه تعالى، وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه على أثره، فذلك النهوض هو نيته؛ والسابقون الذين وصلوا إلى الله عز وجل في مقامه، يترضى ربه عز وجل، ثم يلحقه العمل على الأثر، فالنيات متفانية، فهؤلاء خدم.

وأما الملائكة عليهم السلام، فإنما يعملون في مصافهم ومقاومهم على الأبصار، وإنما خص جبريل عليه الصلاة والسلام من بين الملائكة؛ لأنه خادم ربه عز وجل، لأنه بين يديه على ساقيه يخدمه باختلاف الأحوال، وأهل السماوات في مصافهم؛ فالملائكة في أعلى الخلق مكانًا، وهم سخرة للآدميين. فأما إسرافيل عليه الصلاة والسلام فقابض الوحي، ومؤديه إلى جبريل عليه السلام، وصاحب الصور، يدعوهم إلى الحشر

وقبض الجزاء. وأما جبريل ﷺ فصاحب الرسالة. وأما ميكائيل ﷺ فقابض أرزاق الآدميين، والموكل بالقطر والنبات والرياح لمعاش الآدميين. وأما ملك الموت ﷺ فقابض أرواحهم، وأما حملة العرش فموكلون بالاستغفار للآدميين. وأما الكوريون وأهل عليين فموكلون بالاستغفار والتضرع، والبكاء على أهل الذنوب من الآدميين.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لما أُسري بي، سمعت دويًا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا بكاء الكوريين على أهل الذنوب من أمتك». وأما أهل السماوات فموكلون في صلاتهم بالاستغفار ووفارة التقصير؛ وآخرون موكلون بالرياح، وآخرون موكلون بالسحاب، وآخرون موكلون بالشمس، وموكلون بالقمر، وموكلون بالنبات، وموكلون بالجبال، وموكلون بالبحار، وموكلون بالليل والنهار، وموكلون بالحر، وموكلون بالبرد، وموكلون برزق الخلق صباح كل يوم، وموكلون بالثلج، وموكلون بأعمالهم: حفظة كتبة، وموكلون بالحراسة، وهم المعقبات؛ وموكلون بالهداية على القلوب، وموكلون بالهداية في الأسفار بالاستقامة، موكلون بإتمام الكلام، فإذا قال: الحمد لله، قال الملك: رب العالمين، وإذا قال العبد: سبحان الله، قالت الملائكة: وبحمده، ويكتب ذلك لصاحبها، وموكلون بصلاة الآدميين في صفوفهم، فكلما زاد رجل زاد معه ملك معه رحمة؛ وموكلون بحجهم، وفي مشاهدهم وموقفهم، وموكلون بالزحف للنصر عند لقاء العدو؛ وموكلون بجنائزهم

للتشـــييع، فهــم أمــام الجنازة؛ وموكلــون بليلة القــدر، ونزول الــروح، والتســليم على الآدمييــن؛ وموكلــون بالأعياد وحمل الجوائــز؛ وموكلون بالتثبيت للآدميين فــي أعمالهم؛ موكلون بنــزع الأرواح منهم، ورفعها إلــى الله عز وجل مع ملك الموت؛ وموكلــون بتشــييع أرواحهم إلى العرض علــى الله عز وجل، في مقــام العرض؛ هذا كله في الدنيا، ثم إذا قامت القيامة، فموكل بنفــخ الصور، ومــوكل بالبشــرى للموحدين، ومــوكل بحمل الكســوة للآدمييــن، وموكلــون بالرحمة، ليقســموها عليهم، وموكلــون بجنبــات النــار، ينــادون ربهم عــز وجل، يســألونه السلامة، وموكلون بوزن الأعمال، وعرض الدواوين، وموكلون بحمل الأعمال من الخزائن إلى الموقف، وموكلون بتشــييعهم إلــى الجنــان مــن الموقــف؛ وموكلــون فــي الجنــان بالخزانة: قهارمــة[١٤]، وزوار، وحملــة هدايا مــن رب العالمين؛ وجبريل ﷺ موكل في الدنيا بأداء الوحي، وتبليغ الرسالة، ويوم القيامة بوزن الأعمال، وفي الجنة بالنداء من بُطْنَان العرش[١٥]، للزيارة إلى رب العالمين.

فوجدنــا الملائكــة كلهــم مســخرين لنا فــي الدنيــا، ويوم القيامة، وفي الجنان إلى الأبد، فآدم عليه السلام خليفة الله عز وجل في أرضه، والملائكة جند الخليفة، يعملون له ولولده ما ذكرنا في

---

(١٤) جمع قهرمانة: مدبرة البيت ومتولية شئونه.(المجلة).

(١٥) بُطْنَان العرش: جمع باطن وبطن. (المجلة).

ولده، فما خرّب ولده عمرته الملائكة، وما أفسد ولده أصلحه الملائكة، وما دنس ولده غسلته الملائكة وطهرته.

وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: قالت الملائكة: يا ربنا منا المقربون ومنا الصافون المسبحون، ومنا الكرام الكاتبون، ومنا ومنا، جعلت الدنيا لبني آدم يأكلون ويشربون، فاجعل لنا الآخرة، قال: لن أفعل. فعاودوه بمثل مقالتهم، فقال: لن أفعل. ثم عاودوه في الثالثة، فقال: لن أفعل، لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فكان، هم عبادي المقربون، والملائكة عباد مجبورون، ومكرمون بالعبادة والطهارة، والآدميون خدم وتجار معاملون، فالمعرفة رءوس أموالهم، والحركات تجاراتهم، ومرضاة الله عز وجل أرباحهم، قال الله عز وجل:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾

(محمد: ١٩)

تقلبوا في مرضاته، وثووا في جناته، تحت عرشه في جواره، فأكرم الله تعالى هذا المؤمن بمعرفته، فأحرزه في ذمته، وحرم عرضه ودمه وماله، وعظم حرمته، فأعلمهم بالله أعظمهم حرمة، وأقربهم وسيلة، وأكرمهم عليه، فمثل العالم به كمثل رجل نظر إلى شخص رجل، حتى عرفه بالوجه، فهو ساكن القلب، حتى إذا عرفه بخصلة من خصال الشرف، فوجد قلبه قد تغير له إلى التعظيم والإجلال، فإن كان قد جمعت هذه الخصال في رجل واحد، مما وصف الله عز وجل بها نفسه، من

الجود والغنى، والرأفة والرحمة، والسماحة والكرم، والمعرفة بالأمور، والقوة والتدبير، ومحاسن الأخلاق، عظم شأن الرجل عندك، حتى تهتم في ذكره وأوصافه، فمن كشف له الغطاء حتى عرف ربه عز وجل بأسمائه الحسنى، وبأمثاله العلا، كان أسبى لقلبه، وألهج لذكره.

وابن آدم مطبوع على سبعة، وهي الغفلة، والشك، والشرك، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب، فهذه سبعة أخلاق، فإذا جاءه نور الهداية حتى عرف ربه عز وجل ووحده، ذهبت الغفلة، وذهب الشك والشرك؛ فهو يعلم ربه يقينًا، وينفي عنه الشرك، وزال الشك عنه، ثم لما جاءت الشهوة، فأظلم الصدر بدخانها وفورانها، ذهب بضوء علمه واستنارته، وتحير في أمر ربه عز وجل كالشاك، وظهر شرك الأسباب، فكلما ازداد العبد معرفة وعلمًا بربه عز وجل، استنار قلبه وصدره، وانتقص من الغفلة، ومن هذه الخصال السبع كلها، حتى يمتلئ صدره من عظمة الله عز وجل وجلاله، فعندها كشف الغطاء، وصار يقينًا، وزايله شرك الأسباب، وماتت الشهوة، وذهب الغضب، وذهبت الرغبة والرهبة، فلا يرغب إلا إلى الله عز وجل، ولا يرهب إلا منه، ولا يغضب إلا في ذات الله عز وجل ولله، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عز وجل.

قال له قائل: صِف لنا من رياضة النفس شيئًا: قال: إن النفس إذا اعتادت اللذة والشهوة، والعمل بالهوى، أقبل على فطمها عن العادة في كل شيء، فكلما اشتد عليها فطم شيء فأقبل قبل

ذلك الشــيء حتــى تفطمها عنه، حتى يصير قلبــك حرًا، يألف مــع الله عز وجــل ببره ولطفه. فقد رأيت البــازي كيف يلقى في البيت، وتخاط عيناه، حتى ينقطع عن الطيران، ويربى باللحم، ويرفــق بــه، حتى يأنس بصاحبــه، ويألفه إلفًا، إذا دعاه فســمع صوته أجابه.

فكذلك النفــس؛ إنما تجيب ربها عز وجــل فيما أمرها بعد فطامهــا عــن عادات الأمــور التي اشــتهت ولذت. فــإذا فطمها ألزمهــا الدعــاء، وثناء الرب عــز وجل ومدائحــه ونجواه، حتى تأنــس بذلــك، وتألف الذكر، حتى ينكشــف الغطاء بعد ذلك، فيألف ربه عز وجل.

وكذلــك تجــد الصبي قد ألف ثدي أمه، حتــى لا يكاد يصبر عنه ساعة، فإذا فطمته اشتد على الصبي، وبكى وقلق، فإذا دام الفطم نســيه، وأقبل على الطعام والشراب، فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدي، وعاف ذكر اللبن.

وكذلــك تجــد الدابة تؤخــذ من الــدواب الســائمة، لتؤدب وتعود الركوب، ففي الابتداء تنفر عن اللجام والسرج، فتشكل حتى تســرج، وتلجم حتى تعتاد، وتعلم السير حتى تصير أذنها إلــى العنان، وقلبها إلى إشــارات الراكب بذلك العنان، فإذا بلغ بهــا القنطــرة وثبت وثبــة لا تدعها تجور، فتعتــاد ذلك، فليس فــي كل مــكان يوجد قنطرة، فيعودها الوثب وســيرها في جلبة الصناعيــن، مثــل الحداديــن والنجاريــن، فإذا نفــرت من تلك

الأصوات أو تركت سيرها، أدِّبها حتى لا تنفر ولا تتحير، حتى تصير أديبة سيورة.

فكذلك الآدمي، يُؤدب كما تؤدب هذه الطيور والدواب، بالفطم عن عاداتها، وكل شيء تجد النفس لذته في وقت تفرح بذلك الشيء، فإذا فرحت به فقد تدنس بذلك الفرح، فيصير غشاء عليه، حجابًا له من ذلك الفرح؛ فكان أهل الصدق في هذه الطريق يلزمون هذا الباب الذي وصفت، فكل شيء تفرح نفوسهم به من وجود لذة ذلك الشيء كائنًا ما كان، من طعام أو شراب، أو لباس أو أهل، أو ولد، أو أخ، أو مؤنس، أو أصحاب، أو أمكنة، أو عرض من عروض الدنيا؛ فكانوا يتوقون الفرح لذلك، فيأخذون من ذلك الشيء الذي لا بد لهم منه على الضرورة، ثم يهربون من لذته، خوفا على النفس أن تفرح بذلك، فإذا دام على ذلك صاحبه، فذلك تقوى الباطن. وأما تقوى الظاهر فهو حفظ الجوارح مع الخلق والملائكة.

فإذا فعل ذلك فأدى الفرائض لمواقيتها وحدودها، واستعان على النفس برؤية الموتى والمقابر وأهل السجون، والمواضع التي فيها النيران العظيمة، من الأتون ومذاب جواهر الزجاج، فإن في ذلك قمعًا للنفس، أورثه فعله بنفسه الغم، ومن الغم الهم والأحزان؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «ما عُبد الله عز وجل بمثل طول الأحزان».

تم كتاب الرياضة، بحمد الله ومنه

وصلى الله على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتاب أدب النفس

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الشيخ الإمام العارف، أبو عبد الله أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، رحمه الله تعالى:

إن الله أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته، ولبروز آثار قدرته، وتدبير حكمته، وليكون ذكره ومدحه مرددًا على القلوب، وعلى ألسنة الخلق والخليقة، لما علم في غيبه، فأنبأنا في تنزيله، فقال جل ذكره:

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (الجاثية: ٢٢)

فأعلمنا لم خلق، فقال:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات: ٥٦)

فقال أهل اللغة: إلا ليوحدون، ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾

(الفاتحة: ٥)

يعني نوحد؛ لأن في توحيدهم إياه بأن لا إله إلا هو، إقرارًا له بالملك والقدرة، وإضافة الأشياء إليه. فهذه الكلمة تنتظم المدح، وأباح ذكره على كل حال، تقديمًا له على سائر الحالات وأعمال البر، وحصر ما سواه من الأفعال في أوقات

مخصوصة، مع ما ذكر في الكتاب، وجرت به الأخبار عن الرسول ﷺ، بتفضيل الذكر على سائر الطاعات، لأن في الذكر مدحه، وجاءنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أحد أحب إليه العذر من الله تعالى، ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى جده». حدثنا بذلك الجارود، قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «ليس أحد أحب إليه المدح من الله -عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله -عز وجل-؛ ومن أجل ذلك حرم الفواحش»(الأسماء والصفات للبيهقي بنحوه: ٦٢١) وندب العباد في غير آية من كتابه إلى أن ينشروا ذكره، ويذكروا عنه جميل صنائعه، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾

(الأعراف: ١٨٠)

في كل ذلك يحثهم على مدحه وذكره بالجميل والثناء الحسن، وفي كل اسم له مدحه، وجميل ذكره، ودعاهم إلى توحيده، فقال:

﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾

(النحل: ٥١)

وقال:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)

أي وحدون، لأنك لا تكون له عبدًا حتى يكون لك ربًا لا شــريك له، فمن أشــرك به خرج من نظام التوحيد، فهو وإن كان له عبدًا من طريق الملك، فالعبد بنفسه لم يُصيّر نفسه عبدًا، فيكــون قد وحده وعبده، وإنمــا أطاعه لأن الله تعالى أمــره أن يطيع، فأطاع مولاه بأمــر الله تعالى، فمن أطاع بأمر الله فهــو مطيــع لله، ثــم إن الله تعالى دعاهم إلــى أن يوحدوه قلبًــا وقــولًا وفعلًا، فمــن قبل ذلــك منه جملة، فاســتقرت المعرفــة بأنه واحد، فاطمأن به قلبه، وترجم به لســانه عما فــي ضميره، وعــزم على الفعل مائلًا له، فقــد آمن به. وهذا كله من العبد في وقت واحد، فركب فيه الشهوات والهوى، وجعل للشــياطين فيهم وســاوس يجرون فيهم مجرى الدم، ويغوصــون غوص النون في البحــر، وجعل القلب ملكًا على الجوارح، فالشــهوة تحرك البدن الســاكن، وتزعج القلب، والشيطان يمنيه ويزين له ويعده، والهوى يميل به ويقوده، فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان، والتوحيد ظاهر على لسانه، فــإذا جــاء وقت فعــل الأركان عمل فيه الشــهوات، وزين له العدو، ومــال به الهوى، حتى يفعل الفعل الذي يخيل إليك في الظاهر أنه لم يؤمن بعهد، فهو موحد بالقلب واللســان، ولكن لغلبة الشــهوة وقوتها، فبظلمة هذا الهوى، ووسوسة هــذا العدو والتزين، غلب على القلب لا على ما في القلب،

مما في القلب من المعرفة، فالقلب به مطمئن، ولكن صار مأسورًا مقهورًا، وهو أبدًا لمن غلب عليه وقهره.

فخلق اللوح، وجرى القلم بمقادير الخلق، وخلق السماوات والأرض، والظلمات والنور، والليل والنهار، والملائكة، والجنة والنار، والجن والشياطين، والجبال والبحار، والدواب والأقوات والمعايش، وسائر الخليقة.

ثم خلق آدم عليه السلام فاصطفاه، وجعله بديع فطرته، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء، وأبان فضله وكرّم بنيه، وحملهم في البر والبحر، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلًا، وسخر له ولذريته ما في السماوات والأرض واستخرج ذريته من ظهره، وأخذ عليهم الميثاق، ثم ردهم إلى صلبه، ثم نقلهم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى دار الدنيا ليعبدوه، وليوفوا له بما عهد إليهم يوم الميثاق، بأن لا يشركوا به شيئًا، إلى آجالهم التي كتبها في المقادير، إلى أن تنقضي مدة الدنيا، فيبعثهم للجزاء، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار، وليجزي كل نفس بما كسبت، ليكونوا فريقين، فريقًا في الجنة، وفريقًا في السعير.

فمن نوّر الله قلبه بالإيمان قويت معرفته، واستنارت بنور اليقين، فاستقام به قلبه، واطمأنت به نفسه، وسكنت ووثقت وأيقنت، وائتمنته على نفسها، فرضيت لها به

وكيلًا، وتركت التدبير عليه، فإن وسوس له عدو بالرزق والمعايش، لم يضطرب قلبه ولم يتحير، لأنه قد عرف ربه معرفة أنه قريب، وأنه لا يغفل ولا ينسى، وأنه رءوف رحيم، وأنه رب غفور رحيم، وأنه عدل لا يجور، وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء، وأنه يجير ولا يجار عليه، فكما خَلَقه محتاجًا مضطرًا، فإنه سيوصله إليه من حيث يريد الرب تبارك وتعالى، لا من حيث يريد العبد، على الهيئة التي يريد الرب، لا على الهيئة التي يريد العبد، وبمقدار ما يريد الرب، لا بمقدار ما يريد العبد، وفي الوقت الذي يريد الرب، لا في الوقت الذي يريد العبد؛ فعامة أهل التوحيد قد أيقنوا بهذا، إيمانًا به، وقبولًا له، ولم يستقر ذلك الإيمان في قلوبهم، حتى إذا كان وقت الحاجة، اضطربت قلوبهم وتحيرت، واشتغلت عن خالق الأشياء، ومالك الملوك، وأهل اليقين الذين قد استنار الإيمان في قلوبهم، سكنت القلوب، واطمأنت النفوس إلى ضمان ربها، وقربه منهم، وقدرته عليهم.

فهذا شأن الرزق والمعاش. وفوضوا أمورهم فيما سوى المعاش إليه، واتخذوه وكيلًا؛ لأنهم لما عرفوا بأنه رءوف رحيم منهم بأنفسهم، وأحق وأولى بأنفسهم من العبيد بأنفسهم، لأنه خلقهم فصورهم، وركبهم وأحسن تقويمهم، وسوّى تعديلهم، فلم يكن لهم بأنفسهم من العلم والتدبير

ما دبر لهم، وعرفوه ملكًا قادرًا قاهرًا، يفعل ما يشاء، قد سبق علمه فيهم، بما يكون فيهم ولهم وعليهم، وجرى مع سابق العلم لهم بذلك قلمه في اللوح المحفوظ، ليكون أوكد في قلوب العباد، لأن سابق العلم غائب عن القلوب لا يدرى كنفسه، واللوح قد خط بالقلم فيه أمر محدود، وشخص مخلوق، ويدرك بالقلوب معاينة، فما عاين القلب وأدركه أثبت عندهم مما لا تعاينه القلوب، ولا يمكن توهمه، فخلق اللوح وأثبت مقاديرهم فيه، لا لحاجة به إلى ذلك، وليكون أثبت على القلوب، لتسكن النفوس وتستقر على ما جرى القلم به، فإذا سكنت النفوس، تفرغت القلوب لعبادته، وحفظ حدوده، وإقامة أموره، وسقطت أشغال النفوس عن القلوب فيما يراد بها، وما يكون وما يحدث، لأنها قد أيست عن أن يكون غير ما جرى به القلم، وعند الإياس تسكن النفوس، وإنما دعانا إلى أن نعبده، ونقيم حدوده، ونقيم فرائضه، ونتجنب مساخطه، ولنا قلب واحد، فأثبت في اللوح أرزاقنا وسعينا، وآثارنا وأحداثنا، ومدة آجالنا، وعامة أمورنا، لتطمئن النفوس، وتخلص القلوب من وساوسها، فتعبده بفراغ، وكل ذلك منه رحمة علينا، وبيّن ذلك في تنزيله، فقال تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ (الحديد: ٢٢)

أي من قبل أن تخلق تلك المصيبة، ثم بيَّن لِمَ فعل ذلك، فقال:

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾

(الحديد: ٢٣)

فإن التأسي على الشيء الذي لم يقدر لك في اللوح هو استبداد وطلب ما ليس لك، والفرح بما آتاك يلهيك ويشغلك عن المعطي، حتى تأشر وتبطر بما تعطى، فتهلك، وإنما المبتغى منك في ذلك أن تلهو عن الغائب، وتفرح في الموجود الذي أتاك بالأهل الذي أتاك، ثم بفضله ورحمته عليك، وإلى هذا ندبك فقال:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

(يونس: ٥٨)

وقال تعالى في شأن الرزق:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

(هود: ٦)

ثم قال تعالى:

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

(الأنعام: ٥٩)

أي مَن يأكل تلك الحبة ومَن يرزقها . فإن اضطربت نفسه علـى ضمانه لقلـة اليقين وغلبة الهوى وحرارة الشـهوات ، خاطب نفسـه فقال : يا أيتها النفس لِـمَ تضطربين ؟ قالت : لأنـي محتاجة ، وخُلقـت مضطرة ، ذات شـهوات ، لا أبصر أمكنـة الأشـياء ، ولا أعـرف أوقاتهـا ، ولا أعلـم مقدارهـا ، واشـتبهت عليّ كيفية أسباب وصولها إليّ . فقال لها : أيتها النفـس ، إن كنت قد آمنت بربك ، فحقيـق عليك أن يكون كلام رب العالميـن ووعـده وضمانه وتكفلـه ، أثبت عندك وأوكد وأقوى من الذي تبصرينه على المشاهدة ؛ لأن البصر ربمـا أخطأ ، وربمـا كان مسـحورًا ، يرى أنـه كذلك وليس كذلـك ، وقـول رب العالميـن أصـدق وأبر ، وأوفـى وأثبت من بصرك بعينك ، فلو أبصرت الشـيء الذي يحويه ملكك اطمأننت وسكنت ، فكيف لا يكون بضمانه أشد طمأنينة ، أرأيت لو كان لك ديوان فيه غرماء ملاء أسـماؤهم ، مكتوب فيه : على فلان ألف درهم ، وعلى فلان ألف دينار ، وعلى فلان عشـرة آلاف درهم ، أكنت تطمئنين ؟ فإن وجدتها قد طابت وسـكن اضطرابها لما وجدت في الديوان من أسماء هؤلاء ، وهم أهل صدق ووفاء ، فانشـر عليها ديـوان رب العالمين ، وهو القرآن المجيد المنسـوخ في اللـوح المحفوظ ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد

رسـول الله ﷺ، رسـول رب العالمين، فقلـب أوراقه، حتى تقف بها على آية الرزق، حيث يقول تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾

(هود: ٦)

ثم قـل لها: أيتها النفس المطمئنـة، وجدت في ديوانك علـى هـؤلاء الغارمين مـا وجـدت، وفرحت وأمنـت الفقر فطبـت، فهـذا فـي المصحـف قولـه: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾. أهذا أعظم شـأنًا، وأصدق وأبر وأوفـى، أم الذي وجدت في ديوانك؟ أما تستحين أن تلقي ربك بهذه الحالة، ولكني قد فهمت لـم اضطربت بعد أن أيقنت بضمان ربك، إنك ذات شـهوات، فيك شـهوة العز، فأنت تهربين من الذل، وفيك شـهوة ألوان الطعام، فأنت تهربين من البؤس، فيك شـهوة إدراك المنى، فأنت تهربين من فوتها.

وإنمـا تضطربين لأنك أردت أن يكـون رزقك في وقت، وأراد ربـك في وقت آخر، واشـتهيت أن يكـون على صفة، وأراد ربـك غير ذلك، وأردت مـن وجه راحة، وأراد ربك من وجـه تتعبين فيـه، وأردت كثيرًا، وأراد ربـك أقل من ذلك، فأصبحـت وأمسـيت مخالفة لربك فـي مشـيئاته وإرادته، فحملك ذلك على الشـهوة، حتى غلبتك، فرمتك في أودية المهالـك، فأقبلت بهلعك وجزعك علـى حطام الدنيا، من سـبيل الخبائث والأقذار والشـبهات والأوسـاخ، لسـكون

نفسك به، ثم منعت حقوق الله فيه من ظاهر الأحكام، فقطعت الأرحام، وباغضت العباد، واستخففت بحقوق المسلمين والمؤمنين، وهربت من إنصافهم، وجفوت أهل الحرمة، فأصبحت وأمسيت ظلومًا غشومًا، ووعيد الله ينادي في سمعك قوله تعالى:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾

(الأنبياء: ٤٧)

فهل تعرف مقدار الخردلة من الظلم ما هو، وكيف يكون؟ لو نجع فيك هذا الوعيد لطارت منك الشهوات، ومات منك الهوى. فأهل الفهم راضوا أنفسهم وتدبروا، فقالوا: كيف لنا بأن لا نأسى على ما يفوتنا من الدنيا؟ وتمنوا إليه حاجة، وطلبوا من أين يدخل الضرر عليهم، فوجدوا أنهم لما عارضتهم الحوائج في أنفسهم، تحدثوا بها وتمنوها، وطلبوها على التملك والاقتدار، وأطعموا أنفسهم في إصابتها، فلما فاتهم، وجدوا الأسى والحزن على فوت ذلك؛ ففهموا أن هذا إنما دخل عليهم من أجل أنهم تمنوها، وأطعموا أنفسهم في إصابتها، فوجدت النفس حلاوة وجودها، وقوي الهوى، فراضوا أنفسهم بترك الشهوات، وقطع المنى، فخمدت نيران شهواتهم، ففارقوا

الهوى جهدهم، لمجاهدتهم إياه، حتى ذلل وانقمع، وكلما بدا لهم أمر، أو خطر ببالهم لم يتمنوا ولا أطمعوا أنفسهم، وانتظروا ما يبرز لهم من المسطور في اللوح السابق قبل خلق السماوات، فسلموا لربهم، وانقادوا لحكمته كالعبيد، فعاشوا في الدنيا بأرفع درجة، وأكرم منزلة عند أنفسهم، وأنعم بال وأقر عين بهذا الدين، وماتوا بروح وريحان، ولقوا ربا غير غضبان، ورضوا عن مولاهم، فرضي عنهم، فأيدهم في الدنيا بروح منه، وفي الآخرة قربهم ولطف منهم،

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

(المجادلة: ٢٢)

أولئك:

﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾

(يونس: ٦٢)

استنارت قلوبهم باليقين، فصارت أمورهم في نوائبه كالمعاينة، كلما حل بهم أمر من عسر أو يسر، أو خوف أو أمن، أو ذل أو عز، أو بلاء أو نعمة، حرقت أبصار قلوبهم، فأبصرت في لحظة أن هذا الأمر قد كان في اللوح المحفوظ كما برز لنا الآن، وهو حكم الله علينا، لم يكن فيهم من الشهوات ولا من الهوى من القوة ما يثقل عليهم قبوله من ربهم، وتلقوا أمره بالهشاشة وطلاقة النفس وبشر الوجوه، فهم الراضون والصابرون، قبلوا على كره

من نفوسهم وجهد ؛ لأن شهواتهم حية قوية في نفوسهم، ويقينهم ضعيف، لم يبصروا اختيار الله لهم ذلك، ورأفته ورحمته عليهم، ولم يكن لاختيار الله تعالى ولا لمشيئته عندهم موقع حلاوة، فكانت تلك الحلاوة تمازج مرارات النفوس، فتذهب بالمرارة، كما تجد المرارات في الأدوية، فتمزج بالعسل والسكر وما أشبه ذلك، فيغلب عليه، فتفقد تلك المرارات منه ؛ وإنما تقع حلاوة صنع الصانع في قلبك على قدر حبك للصانع، وإنما تحب الصانع على قدر معرفتك بقدره، وكلما كنت به أعلم، وكان هو أرفع منزلة في الأشياء، كان قدره عندك أعظم، وهو إليك أحب، ولذلك قيل : أشدهم حبًا له أعلمهم به، وأعرفهم له، ومنه قول بديل العقيلي : «من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها» . رواه ابن المبارك، عن سفيان الثوري رحمهما الله تعالى، قال : كتب الحجاج بن فرافصة عن بديل -رحمه الله- .

فمن عجز عن الرياضة، فإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيئاته على حد الإيمان، وصبر على أموره على حد التقوى بأركانه، على ثقل من نفسه، وتنغيص وتكدير من عيشه، وجهد من قلبه ؛ ومن راضها وأدبها استقامت في السير، وانفطمت عن أخلاقها، وتداركه ربه بالنصر

والمــدد، وأنجز له الوعد: فقد بين هذا الشــأن في آيتين من كتابه، فقال:

﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَـٰادِهِۦ﴾

(الحج: ٧٨)

فأمــر بمجاهدة النفس، وفطمها عن أخلاق الســوء، عن أن يريــد غير ما يريد الرب جل وعــلا، فلو تركنا في جميع أعمارنا لكان هذا أمرًا هائلًا عظيما، لكنه وعد في آية أخرى أن يخلصنا من وباله، ويؤدبنا ويبصرنا، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(العنكبوت: ٦٩)

فهو هاديك، وهو معك في النصر والتأييد، فرحمته منك قريب، ممن يقويك ومن يدركك.

وإنما الشأن أن تجاهد في بدء أمرك حق جهاده، فإذا أنت قد ظفــرت بالوعد الثاني قد أنجزه لك، فإذا هداك الســبيل ملأ قلبــك نورًا وكلاءة ورعاية حتــى لا تزيغ، فهو المنيب، المقبل على ربه، القابل لأمره بالهشاشــة والسرعة، ألا ترى إلى قول الرســل الذين مضوا -عليهم الســلام- حكى عنهم الرب تبارك وتعالى، حيث قالوا:

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾

(إبراهيم: ١٢)

والتوكل هو أن تفوض أمرك إلى ربك، ثم ترضى بما يصنع بك، فعلموا في قلوبهم أنهم إنما قووا على ذلك بما هداهم الله لسبيله. ومما يحقق ما قلنا في شأن الراضي والصابر، قول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين، فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإن الصبر على ما تكره خير كثير. واعلم أن مع العسر يسرا، ومع الكرب فرجًا» (شعب الإيمان للبيهقي: ٩٥٢٨). حدثنا بذلك علي بن حجر، قال حدثنا بذلك إسماعيل بن عياش وعيسى بن يونس، قالا: حدثنا عمر مولى غفرة، عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- عن قول رسول الله ﷺ بذلك؛ فقد بين رسول الله ﷺ المنزلتين في هذا الحديث.

واعلم أن الصابر عاجز عن مقام الراضي، وأن الراضي باليقين أدرك ذلك، لأنه عاين عواقب الأمور، وذلك بمنزلة رجل كان له كيس من دراهم، افتقده من حيث وضعه، وهو لا يملك شيئًا سواه، فثار في رأسه كالثيران -من شدة الوجد لفقده- حتى تبين ذلك في أحواله وفي وجهه، وظهر اغتمامه بذلك، فقال له رجل مليء وفي بر صدوق: أنا أعطيك رأس السنة بدل كل درهم دينارًا؛ فسكن إلى قوله، وسكن بعض ما به من الوجد، فلا يخلو من الاغتمام، ويضيق صدره بمضي هذه المدة، فهو يصبر على كره، إلا أنه مازج ما

أطمع فيه، الوجد الذي في نفسه، فخفف ما به وهو كاره صابر؛ ورجل آخر افتقد كيسًا من دراهم، وفي ملكه ملء بيوت من جواهر، كل جوهر لا يدري ما قيمته فما يتبين عليه فقد ذلك الكيس، ولا يبالي به، وهو في ذلك كالذي افتقد فلسًا وعنده كيس من دراهم. فالأول هو غني بالمال، والثاني غني بربه ومليكه، فالأول فرح بالمال والأحوال، والثاني فرح بالله، ثم بفضله ورحمته، عامة ملجئه ومفزعه إلى الله -عز وجل- فالأول قلبه مأسور بالأشياء، قد ملكته حلاوة الأشياء، والثاني سكن قلبه حلاوة قرب الله -عز وجل- فالأول قلبه بالأشياء، وبالأشياء تعلقه؛ والثاني مشتغل بالله وإليه منيب، وبه متعلق.

ومما يحقق عندنا حال هذا الثاني، ما أتت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وعن السلف الصالح من بعده، حدثونا به عن ابن المبارك، عن صالح المري، عن حبيب أبي محمد، وهو العجمي -رحمه الله- عن شهر بن حوشب، عن أبي ذر رضي الله عنه ولم يرفعه؛ وأما غير ابن مبارك فرفعه إلى رسول الله ﷺ، قال: يقول الله تبارك وتعالى لجبريل عليه السلام: «يا جبريل، انسخ من قلب العبد الحلاوة التي كان يجدها بي، فينسخها من قلبه، فيصير العبد والهًا». (حلية الأولياء)

فإن اعترض في هذا القول معترض بالإنكار، وقال هذا غير موجود في الأنبياء والرسل -عليهم السلام- فقد جاءنا

عنهم أنهــم كانوا يبكون في المصائــب، ويحزنون عليها، ويجدون ألم الأشــياء المكروهة، ويفرحون في المحبوب. فيقــال له: يا عاجز، وما يدريك من أي شــيء بكت الرســل وحزنــت؟ وكيــف كان همهــم فــي المــكاره؟ وكيف كان فرحهم؟ ومن أي شــيء ففرحــوا؟ فرب فرح محمود، وعلى ذلــك حــب الله عبــاده؛ ورب حزن ممــدوح أهله فــي الدنيا والآخرة، ونطق الكتاب بالثناء عليهم، والبكاء على ســبعة أنــواع، فما فوقها، كل نوع منها من شــيء غير الآخر، فهل ميزت بين هذه الأشياء، وهل اطلعت مطلع هذه المنازل؟ أم أنت رجل تبعت شــيئًا من هذا العلم تفخر به، وترأست به، فأنت تريد أن تطفئ نور الله بفيك، وتنسب الرسل إلى ما لم يأذن به الله، وتحير الخلق في سبيل الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون والكافرون.

فأمــا فرح المتقيــن فبفضل الله ورحمتــه، وعلى ذلك دلّ عباده، وأما فرح الأنبياء والصديقين فبه تبارك اسمه، ولذلك روي لنا عن مالك بن دينار -رحمه الله- قال: قرأت في بعض الكتب: يا معشــر الصديقين، تنعمــوا بذكري، فإن ذكري لكم فــي الدنيا نعيــم، وفي الآخرة جزاء. وقــال في حديث آخــر: «آثرتمونــي علــى شــهواتكم، ورضيتم بي بــدلًا من خلقي، فبي فافرحوا، وبذكري فتنعموا، فوعزتي ما خلقت الجنــان إلا مــن أجلكم». وحدثنــا عبد الرحيــم عن حبيب

الفاريانـي، في حديث له ذكره عـن حبيب العجمي -رحمه الله- أنه كان يقول (ما) تفسيره: يا رب فرحت حتى كدت أموت مـن الفرح، مثلك لي رب وأنا عبـدك: «خدايا عجب است ممكن إزشـادي بميرم كه مراجو توخدائي»[١٦]، وأما بكاؤهـم فكانـت الأنبياء -عليهم السـلام- أرحـم البرية، فكلمـا ازداد العبد من الله تعالـى قربة، كانت له من الرحمة أكثـر. وكذلـك روي عن ابن المبارك، عـن عبيد بن عمير، قال: ما ازداد العبد من الله تعالى قربة، إلا كان له من الرحمة مـا ليس لغيره. حدثنا بذلك الجـارود بن معاذ -رحمه الله- عن علي وعمير بن عبد الله، فكانوا في المصائب يرحمون، فيبكون ما يرون، وكانوا أعلم الناس بالموت، وكنه مرارته، وعظم شـأنه، وخطـر المقدم على الله -عـز وجل- فكانت قلوبهـم ترق لما يرون، ألا ترى أنـه قال في حديث إبراهيم ابنـه: «إنما هذه رحمة، ومـن لا يرحم لا يرحم». (البخاري ومسـلم بنحوه) فكان يبكي، ويعدّ ذلك رحمة ويحتسـب بذلـك البكاء على الله -عز وجـل-؛ ألا ترى أنه عاب من لا يرحم، فكانت تلك منه رقة، ومن هؤلاء القوم فتنة وصبابة. وكذلك وجدنا الخبر عن حزن يعقوب عليه السلام أنه قال ليوسف عليه السلام: يا بنـي، إنما حزنت عليك مخافـة. وأيضًا من طريق

(١٦) هذا نص فارسي ترجمته السطر السابق له.

آخر قــد يجوز أن يكون الله ســبحانه إذ جعلهم أئمة الخلق، هيج منهم أشياء، ليكون لمن بعدهم بذلك اعتبار.

وفــي هذا كلام إلى غاية الطول، قد بيناه في كتاب (صفة القلوب وأحوالها، وهيئة تركيبها) وما يتردد في النفس في صدور القلوب.

رجعنا إلى ذكر (رياضة النفس):

قــال له القائــل: ومــا رياضة النفــس؟ وكيف يكــون ذلك؟ قال: يسير على من يســره الله ووفقه. فأما الرياضة فهي مشتقة عربيتها من الرّض، وهو الكسر؛ وذلك أن النفس اعتادت اللذة والشهوة، وأن تعمل بهواها، فهي متحيرة، قائمة على قلبك بالإمرة، وهي الإمرة بالشــهوة، فيحتاج إلى أن يفطمها، فإذا فطمها عن العادة انفطمت. ويقال في اللغة: راض ورض بمعنى واحــد؛ فمــن قــال رضّ، فلما أدغــم الألف في الضاد، فشــدد، ومَــن أبــرز الألف خفــف الضاد، فقــال راض، فالرض الكســر، فقيل في الأشــياء المكسورة رض، وقيل في الأخلاق المكسورة راض. فهــذه النفس إذا فطمتها انكســرت عــن الإلحاح عليك، ومنازعتــك في الأمور، فإن النفس اعتادت اللذة والشــهوة، وأن تعمــل بالهوى، فإذا فطمتهــا عن العادة انفطمــت؛ ألا ترى أن الصبــي إنما اعتاد ثدي أمه، كيف ســكونه بذلــك الثدي، إنما يحــنّ إليه إذا فقده، وكيف يفرح بــه إذا وجده؛ فكذلك النفس الشهوانية، فإذا فطم الصبي انفطم، حتى لا يلتفت إلى ثدي بعد ذلك، لأنه وجد طعم ألوان الأطعمة، فلا يحن إلى اللبن، كذلك

النفس إذا وجدت الطيب اليقين، وروح قرب الله تعالى، وحلاوة اختيـار الله -عز وجـل- له، وجميل نظره لها، لم تحنّ إلى تلك الشهوات.

قيـل لـه: فبماذا يوجـد اليقين؟ قـال: بطهـارة القلب، لأن اليقين طاهر، فيطهر مكانه ومستقره.

قيـل لـه: وما طهارتـه؟ قال: تـرك ما اضطـرب القلب عليه ورابك منه تورعًا، دقّ أو جلّ، ثم تطهره من التعلق بالشهوات، والاشـتغال بها، فإذا أنت فعلـت ذلك صقلت قلبك، فصار لك مـرآة بالتورع؛ فكلما تفكرت شـيئًا من أمر الآخرة، تمثل ذلك في مرآتك، حتى تصير الآخرة لك معاينة، فإذا منعت قلبك عن حريق الشـهوات، كما تصون مرآتك عن حرارة أنفاسك، تمثل في قلبك الملكوت، حتى يصير أمر السـماوات إلى العرش لك معاينـة، تبصره بعيني قلبك، كأنـك تنظر إليه، كما قال حارثة ﵁: يـا رسـول الله، كأني أنظـر إلى عرش ربي بـارزًا، وإلى أهل الجنـة كيف يتـزاورون، وإلى أهـل النار كيف يتعـاوون، فقال رسول الله ﷺ: عرفت فالزم. عبد نوّر الله الإيمان في قلبه. فإذا صنـت قلبك فصنـه بعد ما ذكرنا عن النظر إلى نفسـك إعجابًا وفرحًا، بالغطاء لها انقطعت الأسباب منك، وصفا لك طريقك إلـى الله -عز وجل- بلا غبار ولا غيم، فلا يغان على قلبك، فإذا أصاب قلبك الغين استغفرت، كما قال رسول الله ﷺ إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم مئة مرة. وهذا الغين من رسول الله ﷺ ليـس كمـا يجده من بعـده فيما نعلمـه، فليس نراه من

طريــق التخليــط، ولا من طريق العيــب، فقــد كان قلبه أطهر، وشأن أمره أعظم، وأجل من أن يظن به.

ولهــذا الباب تفســير واضح من هذا، نبينــه في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى، في صفة القلب وخلقته وشرح اليقين ما هو.

أردنا أن نســتتم ذكر النفــس ورياضتها عدنا إلــى ذكر رياضة النفس. ألا ترى أن البازي كيف كان نفاره من الآدميين في الجبال الشــامخات، فلمــا ربّ وأمســك علــى التربية، أنــس بصاحبه، وأخذت التربية بقلبه، واعتاد الكون معه، فنزع عن النفار، وترك هــمّ الطيــران، واطمــأن إلى صاحبــه، حتى إذا أرســله وحثه على الطيران طار، فأصاد وأمســك عليه صيده، تحريًا لموافقة مولاه، ثم إن دعاه من الطيران رجع، وآثر هواه على هوى موافقة نفســه، فأجابه منقضًا إلى حبله وســباقه؛ أفلا يحق على مؤمن أبصر هذا أن يموت كمدًا وعبرة وأســفًا على فوت هذا من نفسه، أن يكون طيره أســمع له وأطوع، وأشــد تحريًا لموافقتــه، وألزم لنصيحته مــن العبــد المؤمن لربــه، ألا ترى إلــى الدابة الخسيســة قيمتها قليلة، تؤخذ من الدواب وقد اعتادت الرعي حيثما شاءت، كيف يروضها الرائض على قبول الســرج واللجام؟ وكيف يؤدبها حتى تأخذ الســير؟ وكيف يؤدبها عنــد القناطر، وفي مواضع الجلبة، يريد أن يشــيعها حتى لا تهاب هــذه المواضع إذا بلغت؟ وكيف تفتــح أذنيهــا عنــد المســير. وتميل يمينًــا وشــمالًا، لا ينقلب عنانهــا، فإن لم تجــد قنطرة فأهوى بعنانهــا، وثبت إلى الجانب وثبة مخاطرة بنفســها، وإن اســتقبلها جلبة لــم تهب، ولم تترك

سيرها، فتصير بحال تصلح للملك، فإن قوّمت قوّمت بالدنانير رفعة لها، لا بالدراهم، فتجلل وتبرقع، ويصفى لها العلف، وتربط في مربط الملك؛ فإنما بلغت هذا المبلغ، وسقط عنها جهد العمل وكده، وحمل أثقال الحمولات، وتخلصت من دبر الظهر، ومشقة الاستعمال، فإنها تركت هواها، ورفعت بالها عن نفسها، فإن خاطرت لم تبال، وإن أتعبت نفسها لم تمل، وإن اقتضاها راكبها السير والركض والوثب، استفرغت مجهودها في إعطاء كل ما يبتغى منها، من غير جمح ولا حزن ولا تلكؤ ولا شَمس[17] ولا كسل، ولا تركت أدبها، وقد كانت قبل ذلك هملاً في الرعي، تفعل ما هويت، فهي قريبة القيمة من أشكالها من الدواب، وإنما اختصها الملك وأطاب علفها، وصانها عن رؤية الناس، وجللها وعزلها عن الجهد والكد، بترك مراعيها وهواها ونشاطها، وأنسها بأشكالها، واحتمالها التعب في جنب مالكها، وإعطاء المجهود بالصدق من نفسها، ويقظة قلبها، ونظرها بقلبها إلى راكبها، ولو كانت إذا راضها لم تنقد لمولاها، ولم تأخذ سيرها، ولم تؤدب بأدبه، فإن سيَّرها أبطأت في السير؛ وإن مال بعنانها امتنعت وشمست، وإن مدّها جمحت فمدّت به، وفي الموضع الذي كان يريد السير منها امتنعت من إعطاء ما فيها من القوة، وفي الموضع الذي أراد منها الوقوف حرنت، فركبت هواها، فجاءت بالقوة التي امتنعت منها هناك في السير، فإن قهرها باللجام، فأمسكت عن الركض، لم

(١٧) شمست الدابة: جمحت ونفرت.(المجلة).

تمسك من أجل مولاها، ولكنها أمسكت من كبح اللجام، والألم الذي خلص إلى كبوحيتها، فأشفقت على فيها وأسنانها ولسانها وحنكها، فتركت حينئذ هواها، فجعلت تدور ولا تستقر، لأنها لم تسخ نفسها الدنيئة بطاعة راكبها، ومع ذلك تبول وتروث في مكانها، وتبرك مكانها، فإن استقبلها جلبة نفرت، وتركت سيرها، فرجعت قهقرى، فربما كانت من خلفها بئر أو جرف تتردى فيها، وتنكسر وتقتل نفسها، فهذه دابة خسيسة، فيها أخلاق السوء، لا تصلح للملك. وإنما تصلح للحمولة، فتراها الشهر والدهر موكفة تحت حمولة، فمرة مهزولة، ومرة دبرة جائعة، في عنف وسير وكد عمل، وهي دابة من الدواب؛ فكذلك يصير العبد إذا راض نفسه بترك الشهوات، وقطع الأسباب، وانقطع عن اللذات، ومجاهدة الهوى، وامتناعه عما يريد، حتى تذل وتنقمع، فحينئذ ينقاد القلب والعقل، وتستقيم في سيرها على حد ما أمر به، ولا تهاب أحدًا في أموره، ولا تخاف فيه لومة لائم، إذا نابته النوائب خاطر بنفسه في ذات الله، وأذنه مصغية إلى مولاه، وقلبه شاخص إلى مشيئاته وإرادته، وإلى ما يبرز له من حجب الغيب، فيقبله بالطوع والهشاشة، والانطلاق إلى ما يستعمله به، وكيف ينقله من حال إلى حال، فإن رأى نصرته عدّ ذلك منه فضلًا ورحمة، وإن رأى خذلانه فزع إليه، وألقى نفسه بين يديه، صارخًا إليه، مستغيثًا به، فهو ولي من أوليائه، رفع باله عن نفسه، فرمى بها إلى ربها، فقال: أنت ربي، وأنت خلقتني لما تشاء، لا لما أشاء، ولا علم لي بشأني، وبما فعلت بي، ووجدتك

أرأف وأرحــم بي مني بنفســي، فرفعت بالي عن نفســي، وألقيت بيدي إليك مسلمًا، فاقبلني، فإنك قد بينت في تنزيلك:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ (لقمان: ٢٢)

قــد ألقيــت الخلــق وراء ظهــري، فنظــري إليــك، وقطعت الأســباب، فتعلقــي بك، والله تبــارك وتعالى قائــم عليه، يرعاه ويكلــؤه، ويؤيده وينصــره، ويقر عينه، والعبد مشــغول بربه، ينظر إلى ملكه، وينصر حقوقه، ويحفظ حدوده، ويعظم أموره، ويــذب عن دينــه ما لا يحمــل، ويدعو عباده، فهــو وليه، ورب العزة وليه وهذا شأنه حتى يلقاه.

وبيــان صفة هذا العبــد موجود في الآثار. حدثنا إســماعيل بن نصــر، قال: حدثنا أبو منــذر القطعي، قال: حدثنا عبد الواحد بن حمــزة، عــن مولى عروة بن الزبير، عن عائشــة -رضي الله عنها- عن رســول الله ﷺ، عــن الله تبــارك وتعالى. وحدثنــا إبراهيم بن المســتمر البصري، قــال: حدثنا أبو عامر العقــدي، قال: حدثنا عبــد الرحمن بن ميمون مولى عروة، عن عروة، عن عائشــة، عن رســول الله ﷺ قــال: حدثنــي جبريل عــن الله -عز وجــل- دخل حديــث بعضهم في بعض- أنــه قال: «ما تقرب إلــيّ عبدي بمثل أداء فرائضــي، وإن عبدي ليتقرب بالنوافل حتى أحبه، وما تقرب إليّ عبدي بشيء من النوافل مثل النصح لي حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي به يبصر، ويده التي بها يبطش، ورجله التي بها يمشــي، ولســانه الذي بــه ينطق، وفؤاده

الـذي به يعقـل» (صحيح البخـاري بنحـوه: ٦٥٠٢) . فما ظننا بعبد يعقل بالله، وينطق بالله، ويسـمع بالله، ويبصر بالله، ويبطش بالله، ويمشي بالله، كيف يكون سعيه وآثار منقلبه في الدنيا .

قـال له قائل: كيـف يكون هذا؟ قـال: هذا عبد قد يسـره، وولي سياسـته، وحفظه ورعايته، واسـتعمله، فكان في صنعه، قد أمات فيه الشـهوات، ويسر عليه الصعاب، وبسط له النور، ومد له في الأسـباب، وألهمه وفهمه، وصيره من أولي الألباب، فإن نطق نطق بحكمة، وإن أنصت أنصت بفكرة، وإن نظر نظر بعبرة، وإن مشـى مشـى بهيبة، وإن بطش بطش بغلبة، قد منع قلبه من التفكير، وسـلب في الأمـور التدبير . وهذا كله موجود تحققه في الكتاب والخبر .

فأمـا فـي الكتاب فشـأن الخضر عليه السلام خرق السـفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، فلو عمل في الظاهر ما قدر على ذلك؛ ثم قال في آخر أمره:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾

(الكهف: ٨٢)

فهـذا من الله في الباطن، الذي يؤتيه من يشـاء، وقد قال في ذكره له:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

(الكهف: ٦٥)

فقد بين أن هذا له من طريق العلم الذي علمه ربه. وما ذكر من شأن ذي القرنين، فقال:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾.

(الكهف: ٨٤)

فأوتي العلم الذي لم يؤت غيره.

فإن قال قائل: فهل يجوز لأحد أن يفعل ما يتراءى له في قلبه، أو يقتدي بالخضر عليه السلام فيما يبدو؟ قيل: لا، قد ختم الله تعالى بالرسول محمد ﷺ الرسالة، ولم يبق في الأرض بعده إلا الملهمون والمحدثون. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: قد كان في بني إسرائيل محدثون، فإن يك في أمتي أحد منهم فعمر بن الخطاب رضي الله عنه (البخاري ومسلم عن عائشة بنحوه). وكان ابن عباس رضي الله عنه يقرأ هذه الآية: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث)[١٨]. والنبي دون الرسول بدرجة، والمحدث دون النبي بدرجة، وللرسول درجة الرسالة، وللنبي درجة النبوة، وللمحدث درجة الحديث. وقد أحكم الله بهذا الإسلام الذي ارتضاه لنا دينًا على لسان الكتاب والسنة، ما ليس لأحد فيه استبداد، ولا تجاوز ولا تقصير، إنما هو حفظ الحدود، واتباع الأمر الجملة؛ ثم الصديقون والملهمون والمحدثون

---

(١٨) يقصد بها الآية ٥٢ من سورة الحج ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. (المجلة).

أمــور خارجة من الحدود والأحــكام، وهو تدبير الله -عز وجل- وكلاءته، على ما ذكرناه بدءًا.

ولم نجئ بشــأن ذكــر الخضر هاهنا لنطلق لمــن بعده مثله، إنما أردنا أن نحقق أن لله عبادًا يضع عندهم من مكنون العلم ما شــاء، وأن لهــم عنده من المنازل ما يتحقــق عند من يفهم هذا، أن ذلك الذي قلنا كيف يكون، حتى به يســمع، وبه يبصر، وبه ينطق، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يعقل.

فأما ما ذكر في الأخبار، حدثنا عمر بن أبي عمر، قال: حدثنا الربيــع بن روح الحمصي، قــال: حدثنا ابن عياش، عن ضمضم بــن زرعة الحضرمي، عن شــريح بن عبيــد الحضرمي، عن عبد الله بــن زيد، قــال: قال لقمــان عليه السلام: «ألا إن يــد الله تعالى على أفــواه الحكماء، فلا ينطق أحــد إلا بما هيأه الله له». وحدثنا أبو بكر بن ســابق الأموي، قال حدثنا عمر بن عبيد الطنافسي، عن الأعمش، قال: جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه قال: إن عليا شجني. فقال لعلي: لم شــججت هذا؟ قال: إني مررت بــه وهو مقاوم امرأة، فســاءني مقامها، فصغيت لها، فسمعت ما كرهت، فشججته. فقــال عمــر رضي الله عنه: إن لله في الأرض عيونًا، وإن عليًا من عيون الله. حدثنا عبد الجبار بن العلاء، قال: حدثنا ســفيان، عن إسماعيل بن أبي خالد، سمعه من قيس بن أبي حازم، قال: عرض أبو بكر الصديق رضي الله عنه فرســا له، فقال غلام من الأنصار: احملني عليها يا خليفة رســول الله، قال: لأن أحمل عليها غلامًا قد ركب الخيل بعدلتــه، أحب إليّ مــن أن أحملك عليها. فقال: لِــمَ؟ فوالله أنا

خير منك فارسًا، ومن أبيك. قال المغيرة: فما ملكت نفسي أن أخذت برأسه فركبته، فأقبلا منخراه كأنهما عزلاء مزادة.

قال: فبلغ أبا بكر ﷺ أن ناسًا من الأنصار يتوعدون المغيرة، فقال أبو بكر ﷺ: بلغني أن ناسًا من الأنصار يتوعدون المغيرة، والله لا يخرجوا من ديارهم أسرع من أن أقيدهم بروعة الله.

حدثنا الجارود، عن يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن هشام، عن عروة، عن أبيه، قال: أرسل أبو بكر الصديق خالد بن الوليد -رضي الله عنهما- إلى بني سليم، فجعلهم في الحضائر، فحرقهم بالنار. قال عمر ﷺ لأبي بكر ﷺ: تستعمل رجلًا يعذب بعذاب الله؟ فقال أبو بكر ﷺ: دعنا عنك يا عمر، والله لا أشيم سيفًا سله الله على المشركين، حتى يكون هو الذي يشيمه[١٩]. وقول رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرفعة. والرفيع: السماء، والأرفعة: جماعة. فأخبر رسول الله ﷺ أنه أصاب فيهم حكم الله عنده. وكان حكم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتكون الغنيمة للمهاجرين دون الأنصار، وذلك في شأن بني قريظة.

حدثنا عبد الكريم بن عبد الله، عن علي بن الحسن، عن عبد الله، قال: أخبرني أبو بكر بن أبي مريم، حدثني راشد بن أبي راشد، قال كنت مع خالد بن أبي معدان يومًا في بعض أسواق المدينة بحمص، فإذا نحن بنصراني أظهر الشرك بالله تعالى، فقال لي خالد: احسر عن ذراعيك، ثم قال لي: دق أنفه، قال

---

(١٩) شام السيف: غَمَده.(المجلة).

راشــد : فوجــأت أنفــه أن دققته، فانطلــق النصراني فاســتعدى علينــا، فقــال الوالي لخالد : مــا حملك على مــا صنعت؟ قال : أرغــم الله أنفــه وأنف من ثقــل عليه تأديبنا له، إنــه ليس لهم أن يظهروا شركا ولا صليبًا، فيصنع هذا بهم حتى يكفوا عن إظهار الشرك بالله -عز وجل-.

حدثنا عبد الله بن أبي زياد، قال : حدثنا ســيار عن حفص بن سليمان، عن مالك بن دينار -رحمه الله- قال : رأى عامر بن عبد قيــس ذميًا يُظلم، فألقى رداءه فقــال : والله أتخفر ذمة وأنا حي؟ فاستنقذه.

فإذا فطمت نفســك عن حرارة الهوى، ووقعت حرارة الفطام علــى قلبــك، فذابت تلــك الأخلاط عــن قلبك، وطهــر قلبك، وخــرج صافيًا كما خرج الذهب الذي أحمي، فتهافت عنه تلك الأوســاخ والأدناس، لأن للهوى على القلب أوســاخًا وأدناسًــا، كمــا كان للمعاصــي على القلب نكت ســود، على مــا جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ، قال : إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة ســوداء، فإذا عاد نكت أخرى، فإذا تاب ونزع صقل قلبه، ثم تلا :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(المطففين : ١٤)

فــإذا ذهبت المعصية بالتوبة ذهب ســواده، وبقي دخانه، وذهب الشيطان، وبقي ظله، كما ذهب الليل وبقي سدفه وآثاره عند وجه الصبح؛ فإذا تاب عن المعصية وهو ممن يســتعمل

الهـوى، فالهوى باق بعد، فهـذا قلب قد تاب ولم ينزع، فلم يصقـل قلبه بعد؛ وذلك أن المـرآة المصقولة إذا نظرت فيها أرتك عن اليمين وعن الشـمال، وخلفك وأمامك، فإذا قلبت بها إلى عين الشـمس هكذا، فلاقى نور المرآة نور الشـمس، وجدت الشـمس تشـرق في مكانك وفي بيتك؛ فكذلك إذا صقلـت مرآتك، وهي قلبك، نظرت عنها إلـى الجنة والنار، وإلى بهاء الحسـنات، وإلى جمالها ورفعة مرتبتها، وإلى قبح السـيئات، وإلى الدنيا والآخرة، وإذا نظـرت فيها إلى تدبير خالقـك، تراءى لك عجائب، وذلك النور الذي تجده عندك، إذا أقبلت بمرآتك إلى عين الشـمس، ليس هو الشمس، إنما هو نور حدث مـن بينهما، فإذا صفا قلبك من الهوى، حينئذ تجـد اليقين، لأن اليقيـن هو نور يحدث علـى قلبك من نور معرفتـك، ونور إلهك الذي هو نور السـماوات والأرض ونور كل شـيء، فـإذا أقبلت على الله تبارك اسـمه، أشـرق القلب بالنـور، فذلك اليقين؛ وإذا كان بالمـرآة صدأ فقلب بها إلى عين الشـمس، لم يشـرق في البيت منه شمس، لأنه قد حال بين نور المرآة ونور الشـمس ذلك الصدأ، فكذلك القلب إذا أقبلت على الله تعالى وعليه الهوى، لم يشرق بالنور الأعظم، لأن الهـوى قد حال بين نور المعرفة وبين النور الأعظم، وهو اليقين، فإذا ذهب الهوى، فنظرت له، تلاقى النوران، فأشرق في صدرك، فأبصرته عين قلبك، فصار يقينا. واليقين في لغة

العرب هو الشيء المستقر الثابت، تقول العرب: قد يقن الماء في الحفيرة.

قال له قائل: اشرح لنا صفة القلب.

قال: القلب بضعة من لحم، في جوف بضعة أخرى، وهو الفؤاد، ومعدن النور القلب، ومنه قيل خبز فئيد، لأنه في جوف الرماد الحار والجمر، فالبضعة الخارجة هي الفؤاد؛ وإنما سمي قلبًا لأنه يتقلب، وله عينان وأذنان وباب، والصدر بيته، وإنما سمي صدرًا لأن الأمور تصدر عنه، فالنور الذي في القلب يعرف ربه، لأنه نوره، وهو حبة القلب، واشتقاق الحب منه، لأنه وصل حبة قلبه، ومنه قوله عز وجل:



(الحجرات: ٧)

أي أوصله إلى حبة القلوب، ثم قال تعالى:

﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾

(الحجرات: ٧)

ولم يقل في فؤادكم، ومما يحقق ذلك قول رسول الله ﷺ: أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوبًا، وأرق أفئدة (رواه مسلم عن أبي هريرة: ٩٠)، فوصف القلب باللين، والفؤاد بالرقة، فالنور إذا خرج من باب القلب أشرق في الصدر، فأبصر عين الفؤاد ذلك النور، فإذا فكر في الجنة أو النار، أو في شيء من أمور الآخرة، وقع لتلك الفكرة ظل على الصدر، فتمثل ذلك الشيء بين عيني القلب، فصار كأنه ينظر إليه، وإذا ذكر الرب تبارك وتعالى لم

يقــع لذكره ظل على الصدر، ولكنه يشــرق النور، ويتلألأ النور في الصدر، حتى يكاد يغشــي بصر القلب، لأن النور إنما أشرق في الصدر، لأنه نوره، فإذا ذكر الأشياء، فالأشياء مخلوقة، فوقع للأشــياء ظل، وإذا ذكره تــلألأ النور، ولم يقع فــي الصدر ظل، وهو بمنزلة قنديل معلق في البيت، فحائط البيت يشــرق عليه نور الصباح، فإذا رفعت يدًا أو شيئًا بين الحائط وبين المصباح، وقع لذلك الشــيء على الحائط ظل، وتمثل ذلك الشــيء، فإذا رفعــت بين المصبــاح وبين الحائــط مصباحًا آخــر، ازداد ذلك إشــراقًا وضياء، ولــم يتمثل على الحائط صــورة، ولا وقع ظل، فهذا شأن القلب.

فــإذا حمي القلــب بالفطام من الهوى فصفــا، صار كالذهب يخرج من النار، فحينئذ يحك بالحجر، اختبارًا لجودته. وذلك أن الذهــب لاجتماعه وكثرته، أراك لون حمرته، بقوة بعضه من بعض، وانضمام بعضه إلى بعض، فإذا حككت منه شيئًا بحجر، وبقي بالحجر من ذلك شــيء لطيف رقيــق، تبين لك جودته أنه يريــك في حال الضعــف والرقة، من آية قواه أنــه قوي الحمرة، وأنــه جيد؛ وذلك الرديء المغشــوش يريك حمرته ما دام كثير القــدر، كثير الوزن، مجمع القوى، فــإذا حككته بحجر، فبقي الذي على الحجر، رأيته أصفر، فعرفت أنه ليس بجيد.

فكذلك القلب لا يتبين ما فيه حتى يفطم، ويريك أنه قد صفا بالفطــام، فحينئــذ يحك بحجر البلوى، فيختبر ســكونه بمن، وإلفــه مع من، أبالله ســكونه ومعه إلفه، أم لعطائه ســكن، ومع

أحوال نفســه ألف؟ فالحك هو النقصان، فمن كان سكونه به، وإلفــه معه، لم يتغير للنقصان، أعني نقصان العطاء، ولجزيله، لأنه للنقصان والتجزيل يبين إلام سكنت، وهل قطعت الهوى؟ فهــذه منزلــة عبادتك له بما هو أهله، وهو الــذي يقال له: اعبد الله باليقين لا بالهوى، واليقين عقيب الهوى، فكل ما نقص من هــذا ازداد من ذلك، فهما يتعاقبان أبدًا، ويقال: الصبر صبران: صبر على الشــدائد، وصبــر على ما يدعوك إليــه الهوى، طاعة كانــت أو معصية، فإذا فطمت نفســك عن طاعــة الهوى، حتى صار لك عادة ألا تطيع الهوى في شيء من الأشياء، وإن أبيح لك ذلك الشيء، استنار قلبك باليقين، وهو نور مشرق في الصدر، وعينــك تنظر إلى ذلك النور، ونفســك يقظــان بقرب الله -عز وجل- كما قال عامر بن عبد قيس -رحمه الله-: ما وقع بصري على شــيء إلا رأيــت الله أقرب منه. وروي عن محمد بن واســع رحمــه الله تعالى نحو من ذلك، وإنمــا أدرك عامر هذه المنزلة، لأنــه راض نفســه حتى صــار بحال -حكــى عن نفســه أنه قال: وجــدت الدنيا أربعة أشــياء، فما زال يروض نفســه حتى أطاعه الهــوى، حتى قيل له حيث يريد الشــام: كيــف تبكي على أهل مصر؟ قال: لأن بها إخواني، وبها كثرة تجاوب المؤذنين، وبها ظمــأ الهواجر. قيل لــه: فقد أذن لك، أفلا ترجع؟ قال: أكره أن أرتحل رحلة هوى.

وكما روي عن وهب بن منبه -رحمه الله تعالى- أن رجلًا قال لمعلمه: قــد قطعت الهوى. قال: أتفرق بين النســاء والدواء؟ قال: نعم. قال: فأنت أوثقت الهوى ولم تقطعه.

وكما روي عن عيسى ابن مريم -عليهما السلام- : هل يستوي عندكم هذان : كف من تراب، وكف من ذهب ؟ قالوا : لا. قال : فهما عندي سواء. فهذا قطع الهوى.

قال له قائل : اشرح لنا هذا. وكيف يستوي هذان في القلب ؟

قال : إن الناس إنما فرقوا بينهما، وفضلوا الذهب على التراب بالهوى، لما رأوا منفعة الذهب، فضلوه من أجل المنفعة.

فينبغي لمن أراد التخلص من هذا، أن يروض نفسه، حتى يرى بنور اليقين الأشياء كلها مستوية، بمعنى أنها خلق الله تعالى، ثم يرى المنازل التي أنزلها الله تعالى، فبإنزاله إياها بين لها تلك المنزلة موافقة له، ولو شاء جعل المنفعة التي في الذهب، في الزجاج وفي الحجر، ولكان الذهب ساقط المنزلة عن القلوب، ألا ترى أن عمر رضي الله عنه أراد أن يتخذ الدراهم من جلود البقر.

فإنما ينبغي لك أن تفضل عندك شأن الدينار والدرهم، بما أنزل الله لا بهواك، ألا ترى لو أن رجلًا أتى سمرقند بعض هذه الكور[٢٠] التي تجوز فيها هذه الفلوس، كان للفلوس عنده قدر، إن افتقدها حزن، وإن وجدها فرح؛ فإذا تحول إلى كورة لا تجوز فيها تلك الفلوس، فلو رمى بها لم يبال؛ فهذا مما يدلك أن الذهب إنما عظم موقعه من القلوب لعظم منفعته، بأنه صار ثمنًا للأشياء، فمن أجل ذلك بغض الله تعالى كثيرًا من الناس

(٢٠) الكور: جمع كُورة وهى مقاطعة ريفية، بقعة تجتمع فيها قرى ومحال.(المجلة).

من أجل أنهم رأوا منفعة الأشـياء من الدينار والدرهم، لا من الله -عز وجل-.

فينبغي لك أن تروض نفسك وتفطمها عن هذه الأشياء، حتى يصفو قلبك، ويسير باليقين، حتى ترى الدينار والدرهم خلقين من خلق الله تعالى كسـائر الخلق مبتدعًـا، ثم تنزلهما بالمنزلة التـي أنزلهما الله تعالى، فبإنزاله يفضلهما، ويرى المنفعة التي فيهما من خالقهما، فحينئذ يسـتوي عنـدك حالهما، في أنهما خلقـان مـن خلق الله تعالى، فهـذا عندنا معنى قول عيسـى ابن مريم -عليهما السلام-.

فـإذا غفلت عـن النفس بعد رياضتها، فلا تأمـن أن تعود إلى بعض عاداتها ما دامت الشـهوات منها حية، والهوى قائمًا، ألا تـرى أن القـوس إذا ترك اسـتعمالها وتعاهدهـا وعتقت، كيف يأخذ البيت الأسـفل من البيت الأعلى، فكلما رميت بها سهمًا أخطـأ الغرض، كذلك النفس إذا تركتها حتى تقوى شـهواتها، ويشـتد حرهـا في الجـوف، وتقـوى ظلمة الهـوى، أخذت من البيـت الأعلـى، وهو نور العقل ونور المعرفـة ونور الروح ونور العلم، فتحرق بنيران الشهوات، من هذه الأنوار التي في القلب بقدر قوتها؛ وإذا قويت بنيران الشهوات ضعفت الأنوار، فيظلم الهوى على اليقين، فيتولد الشـك على القلب من هذه الآفات، فتغلـب على القلب هـذه الآفات، فمن هاهنا يصـرع، فهذا هو القلـب المصـروع، والمأسـور فـي يـد هواها؛ فلما خـرج منه عمل مـن أعمال البر، ثم لم يصب الغرض، فوقعت رميته يمينًا

وشمالًا، وربما خرج منه فلم يبلغ الغرض لضعف القوس؛ وذلك أنه رمى عن قوس قد أصابتها الآفات والعلل؛ فكذلك آفة القلب الذي وصفنا، وربما أردت برًا، مال بقلبك الهوى إلى الشهوات يمينًا وشمالًا، حتى تحيد عن السبيل والسنة، وربما جاوزت الغرض، وربما ضعف قلبك، فعملت بغير نية، فلم يبلغ عملك إلى ربك، كما قصرت الرمية عن الغرض؛ أفلا ترى كيف تعالج القوس وتحمى حتى تلين، فإذا لانت سويت، حتى يرجع البيت الأعلى إلى مكانه، وإنما زال عن مكانه لأن البيت الأسفل لما قوي وصلب مد البيت الأعلى بفضل قوته؛ فكذلك النفس لما قويت وصلبت شهوتها، انتشرت وهاج هواها، فأحرقت أنوار القلب، والقلب هو رطب بالأنوار، لأن النور هو من الله تعالى رحمة، والرحمة باردة، والقلب لين منقاد برطوبة تلك الأنوار، فإذا احترق النور صلب القلب وقسا ويبس، فخف عن ذكر الله، ولهى عنه، فالمشروح صدره للإسلام، شرحه ربه

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾

(الزمر: ٢٢)

فمدت النفس آلتها، فصار في سلطانها، كما يحمى القوس حتى تلين، ويتخلى عن البيت الأول.

كذلك تراض النفس بأن تحمى، وهو أن يمنعها اللذات والشهوات، فتحزن، ويصيبها حرقات منع الشهوات في مصائبها، فبتلك الحرقات تذل وتنقمع، وتلين وتتخلى عن القلب، فيرجع القلب إلى مكانه بنور المعرفة ونور العقل

ونور العلم ونور فوائد العطايا؛ فكلما منعت النفس شيئًا من هذه الشهوات، خلت عنه كما وصفنا؛ كلما أعطيت النفس منيتها قويت، فصارت كالشجرة تثمر الحنظل والدفلي[21] والمر والصبر والسموم القاتلة، فإن أردت ألا تنمو، فالتدبير فيما عقل العبد وفهمه، أن تحبس عنها الماء والسُّرقين[22] والتراب الذي يلقى في أصله، حتى تيبس، فتصير جذعًا لا يثمر ولا يرجع عليك بالضرر؛ ثم لا يزال جذعًا يعترض بين عينيك، يشغلك عما سواه من الأشجار، فتشعل فيه نارًا، حتى يذهب شخصه من بين عينيك، فإذا هو قد ذهب أثره، وذهب ذكره.

وكذلك النفس: في التدبير أن تحبس عن النفس لذاتها وشهواتها، حتى تذهب ثمراتها من هذه السموم القاتلة، التي تميت قلبك في الدنيا، فتصير أعمى من العميان في الدنيا بصيرًا في دين الله -جل وعلا- فتقبل على مزبلة وهي الدنيا، وإنما هي قنطرة، تداولتك أيدي أسود وأبيض وهو الليل والنهار، حتى تؤديك إلى الخالق البارئ، المثيب المعاقب، فتعظم ما صغر الله، وتكرم من أهانه الله، وتدني من أقصاه الله، وتتعلق بمن لا بد أن تفارقه، وتعمر ما أذن في خرابه؛ فإذا ذهب ثمراتها حبست عنها الفكرة فيها، والحديث عنها، والتذكر لها، حتى تيبس، ثم لا تزال تمنية شهواتها قائمة بينك وبين

(٢١) الدفلي: شجر معروف مُرّ يكون في الأودية.(المجلة).

(٢٢) والسُّرقين: السّماد.(المجلة).

ربــك، تفرح بالعطاء، وترضى بما تعطى به، وتروم ما لم تعط، وترى نفســها في الأشياء؛ فهي تحجبك وتشغلك، حتى إذا منّ الله عليك بنور اليقين، فهي كالبرقة، كما تشــعل شــجرك نارًا، فيذهب أثره وذكره، كذلك البرقة تحرق قائمة نفسك، فيذهب أثرها وذكرها، ويبقى والها منفردًا به، فتكون الأشــياء والأمور منــك له وبــه؛ فــإذا أهملتها، وعجــزت عن رياضتهــا، رجعت عليك بوبــال عظيم، تعرض عن دار دعــاك إليها رب العالمين، فقال تعالى:


﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾

(يونس: ٢٥)

أمنك من آفاتها، فنســبها إلى اسمه السلام من بين الأسماء؛ يعلمــك أن لســكانها الســلامة مــن الآفــات، محشــوة بالنعم، مشــحونة بالرضــوان، وتلهى عنه باللعــب والباطل؛ كفى بهذا عــارًا، وأنــت عبد ســخر الله لك الخلــق والخليقة لــم تنل حتى تكــون ما عاشــت قائمًا بتربية حقوقــه، ناظرًا لأمــوره، معظمًا لشــأنه، ذاكرًا له، ناشرًا عنه الجميل، مشتاقًا بقلبك إلى لقائه؛ فأقبلت على تربيتك نفسك، وطلبك لها العز والجاه، والمنزلة من الخلق، والذكر على الألســنة؛ فهذه ربوبيته، فكيف تتفرغ للعبودية من طلب الربوبية؛ فاشــتغلت عنه، فســهوت ولهوت عن ربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدلك، وجمل صورتك، ودعــاك فأعطاك وحباك، وأملك ومناك، ومن عظيم الخطر ومن ظلمة الكفر نجاك.

فهــذا الذي وصفنا مــن تركك الشــهوات وتجنبك اللذات، ليس تحريم الذي أحل الله لك، ولكن تأديب لنفســك، ورياضة لها، لأن هذه النعم إنما أمرت وأذن لك في تناولها، على الأدب الذي أدبت به على لســان الكتاب والرســول؛ فلما ســاء أدبك لمــا فيه من أخلاط الســوء التــي مالت بك، لم تجد بــدًا من أن تعظمهــا مرة، حتــى يجد القلب فراغًا إلــى تعلم الأدب، فتأخذ طريقًــا؛ فأما قلب معلق بالشــهوات، مأســور باللــذات، مقهور بالمنى، محبوس في ســجن الهوى في بئر مظلم، فكيف يمكنه أن يتناول ما أعطي بإذن الله؛ فإن بعض من خفي عليه هذا النوع مــن العلم، كبــر في صدره هذا، حتى ربما يفــرح إلى الاحتجاج بقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾

(المائدة: ٨٧)

وبقوله تعالى:

﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ ﴾

(الأعراف: ٣٢)

فهذا من الاحتجاج تعنيف، ومن القول تحريف، لأنا لم نرد بهذا التحريــم، ولكن أردنا تأديب النفــس، حتى تأخذ الأدب، وتعلــم كيف ينبغــي أن تعمل فــي ذلك؛ ألا ترى إلــى قوله جل وعلا:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾
(الأعراف: ٣٣)

فالبغي في الشيء الحلال حرام، والفخر حرام، والمباهاة حرام، والرياء حرام، والسرف حرام، فإنما أوتيت النفس هذا المنع من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبها، حتى فسد القلب، فلما رأيت النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق، تريد بذلك تغنيًا أو مباهاة أو رياء، علمت أنها خلطت حرامًا بحرام، فضيعت الشكر، وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر؛ فلما رأيت سوء أدبها منعتها، حتى إذا ذلت وانقمعت، ورآني ربي مجاهدًا في ذاته حق جهاده، هداني سبيله كما وعد تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾
(العنكبوت: ٦٩)

فصرت عنده بالمجاهدة محسنًا فكان الله معي، ومن كان مع الله فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل؛ وقذف في القلب من النور نورًا عاجلًا في دار الدنيا، حتى يوصله إلى ثواب الآجل؛ ألا ترى إلى ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قذف النور في قلب عبد انفسح وانشرح، قيل: يا رسول الله، فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» (الأسماء والصفات للبيهقي: ٣٢٦)؛ وإنما تجافى عن دار الغرور، بما قذف في قلبه من النور، فأبصر به عيوب الدنيا ودواهيها وآفاتها وخدعها وخرابها، فغاب

عــن قلبه البغــي والرياء والســمعة والمباهاة والفخــر والخيلاء والحسد، لأن ذلك إنما كان أصله من تعظيمه الدنيا، وحلاوتها في قلبه، وحبه لها؛ وكان ســبب نجاتــه من هذه الآفات برحمة الله رياضته هذه النفس، بمنع الشهوات منها.

وهذا في الآثار موجود قائم عن السلف، قد سارت به الركبان، مــن غيــر وجه؛ حدثنــا محمد بن ســهل، قال: حدثنــا عمر بن منصور القيســي قال: حدثنا عبد الواحد بن زيد، عن الحســن، قــال: قال رســول الله ﷺ لأصحابه ذات يوم: «مــاذا تقولون في صاحب إذا أنتم أكرمتموه ورحمتموه وأطعمتموه وســقيتموه، دعاكم إلى شــر غاية؛ وإذا أنتم أهنتمــوه وأعريتموه وأجعتموه وأعطشــتموه وأتعبتموه، دعاكم إلى خير غاية؟ قالوا: يا رسول الله، هذا شــر صاحب في الأرض. قال: إي والذي بعثني بالحق، هي أنفسكم التي بين جنوبكم».

وحدثنــا صالح ابــن محمد، قال: حدثنا أبــو مقاتل، عن ابن عون بن أبي راشــد، عن الحســن رضي الله عنه قال: بلغنا عن عيســى ابن مريم -عليه الصلاة والســلام- قال في خطبته: «لا تضرين بكم الشهوات، فإنها أشد حرًا في الجوف من النار، وأشد سكرًا من الخمر، وإنكم لا تدرون ما تأملون، إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تنالون ما تحبون، إلا بترك ما تشتهون».

حدثنــا عمر عن ســهل بن تمــام، عن عمار بــن منصور، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن رســول الله ﷺ، قال: «طهروا قلوبكم بقلة الطعام تصفو، فترق وتصلب وتستعف»؛ فصفاؤها

لله، وصلابتها في الدين، ورقتها للإخوان، واستعفافها في ذات الله تعالى.

فعالج قلبك حتى تعتقه من رق النفس بما وصفت، فإذا كان كذلك صفا قلبك من كدورة الأخلاق، وطهر من شهوة الآثام، فاستقر اليقين فيه؛ لأن اليقين لا يستقر حتى يرى مكانًا طاهرًا، فتحيا القلوب وتصلب؛ لأنه من الله، قد قرب عبده واصطفاه، فيصير حينئذ ما غاب عن العين من أمور الآخرة، وأمور الملكوت، بعين قلب، فهو كالبرق في ليلة ظلماء، إذا برقت أبصرت بعين رأسك جميع ما غاب عنك في تلك الظلمة، من بئر أو جرف أو واد؛ أو ما ترى إلى حديث حارثة؟ حدثنا بذلك عبد الجبار بن العلاء، قال: حدثنا يوسف بن عطية، عن أنس، قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمنًا بالله حقًا، قال: فانظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة. قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني بعرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها. قال: عرفت فالزم». عبد نور الله الإيمان في قلبه. فقال: يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة. فدعا له رسول الله ﷺ، فنودي يومًا في الخيل، وكان أوّل فارس استشهد، فبلغ أمه، فجاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، أخبرني عن ابني، إن يك في الجنة لم أبك عليه ولم أحزن، وإن يك غير ذلك بكيت

عليه ما عشت. قال: يا أم الحارث إنها ليست الجنة، ولكن جنة في جنان؛ والحارث في الفردوس الأعلى. فرجعت وهي تضحك وتقول بخ بخ لك يا حارثة.

أفلا ترى أنه لما راض نفسه بأن قال: عزفت نفسي عن لذات الدنيا وشهواتها، فكأني أنظر إلى عرش ربي، فصارت الأمور الغائبة عنده معاينة، فعمل على الحقائق، وذهب الجهل؛ لأنه من نصب وتعب وعمل على المعاينة، زال الجهل عنه؛ ومن عمل على غير المعاينة، فهو في جهد عظيم، ومخاطرة عظيمة من قبل نفسه، إلا من عصم الله تعالى؛ لأنه كالسائر في الظلمة: أحيانًا يمشي، وأحيانًا تنهشه حية، أو تلدغه عقرب، لا يبصر أين يضع قدمه، فهذه مخاطرة.

وأما جهده ثقل نفسه، فإنما ثقل أنه لم يعاين ما ثمرة هذه الأمور؛ هو بمنزلة رجل قيل له: احمل هذه الحمولة، فثقل عليه، فهو يجد ثقلها على فؤاده، فقيل له: احمل، ولك هذا الدينار، فاستمر بالحمولة، ونهض بأعباء ثقلها، فوجد خفة الحمولة؛ لأنه قوي القلب بما عاين من الدنيا، فقويت الأركان؛ أو قيل له احمل هذه الحمولة، فثقل عليه، فعلاه بالسيف أو بشعلة نار، فخلص إليه الخوف، فاحتمله، فوجده خفيفًا؛ لأن القلب قد عزم على احتماله، هربًا من السيف، أو قيل له احمل هذه الحمولة، فثقل عليه، فقيل له: هذا الملك وأنت بعينه ينظر إليك، فوجد القلب قد انتقل عن حالته، إجلالًا للملك، فاستمر بالحمولة وقوي القلب، فإنما أدرك حمل هذه الحمولة بما عاين،

فكذلك صاحب النفس قد عاين وشاهد قلبه، مما هو أكثر مما هاهنا من معاينة بصر الرأس في دار الدنيا؛ فالقلب الموقن، صفته إذا تناول النعمة، فكأنما يتناولها من خالقه، فيأخذها بحياء، ومرة بحلاوة، ومرة بمهابة، ومرة بخوف؛ وإذا نزلت به بلية أبصر بنور يقينه إلى أموره، اختار له هذا، فظن به أحسن الظنون؛ لأنه أيقن أنه به أرحم منه بنفسه وأرأف، فأتمن ربه، واتهم نفسه، وقال: ربي أعلم بما اختار لك، فإن لم أصلح على اختياره وتقديره، لم أصلح على اختيارك وتقديرك أيتها النفس، واختيارك أنزل بي هذه البلية لإحدى خلال: إما تكفيرًا لخطيئة استوجب بها هذا العذاب الأكبر، وإما رفع لي درجة يقربني إليه، وإما بينهما لأمر عظيم، أو عصمني من ذنب، أو صرف عني داهية، أو عاجلني بعقوبة؛ لأن يرفع عني عقوبة الآخرة، ففي كل هذا خير. وأما العارف فإنه أجمله، فقال: هو مشيئة ربي، فمشيئته أجلى عندي وأعظم على قلبي، من نفسي وجميع جوارحي، وهؤلاء قوم ولهت قلوبهم لديه، فصارت أحكامه التي رضيها لهم منية قلوبهم، من إجلالهم له وإعظامهم.

عدنا إلى صفة الموقن:

وإذا ذكر الرزق وثق بالضمان، واطمأن بوفائه، فإن طلب طلبه مع سكون القلب، على حد ما أمر به، فإذا عرض له في ذلك شيء يكون فيه نقصان من حظه من الله تعالى، أعرض عنه، وتوجه إلى ربه ينتظر من أين يفتح؛ والعارف تخلص من هذا كله، من الضمان والوفاء، وشغل عن طلب الرزق بالرزاق، فقلبه في

البحــر الأكبر، قد تعلق قلبه به، فإذا ذكر المنة غرق، وإذا ذكر العافيــة قلق، وإذا ذكــر حلول الأجل شــرق، وإذا ذكر العيوب عــرق، وإذا ذكر الرعاية والكلاءة ومق(٢٣)، وإذا رأى اللذات في الطاعة مئق(٢٤)، وإذا ذكره تئق(٢٥)، وإذا حن إليه واشــتاق غرق فــي أثقال المنة، وعظمت آماله فيما لديه، وقلق من خوف زوال الإيمان، وشــرق بغصته من حلول الأحــزان، لطول الحبس عنه فــي دار الدنيا، وغرق من الحياء لما يرى من عظيم بره ولطفه، وجميل نظره، وحســن عوائده، ومن جميل صنائعه، ومن هرب النفس منه، وإعراضه عن حقوقه، وإظهار جفوته؛ وهو من عظيم عطفــه عليه في كلاءته ورعايته، واصطناعه إليه؛ ومئق لما يرى مــن فتح باب الدعة، وإكرامه بالطاعــة، وتقريبه إياه بما يمكن له من الخدمة، وتئق من طول الغربة، وشدة الحنين، فأنسه به، وســكونه إليه، وهــو ملجؤه وثقته، وكهفه وســنده ورجاؤه، لا يتهمه على نفسه، ولا يسيء به الظن في نوائبه، بحسن معرفته بربــه أنــه غفور رحيــم، ودود حميد مجيد، واحــد صمد قيوم، كفيــل وكيل، جــواد كريم، حنان منان، حــي لا يموت، لطيف بعبــاده، بر رحيم، شــكور غفــور، حليم عفــو رءوف، معروف بالمعروف، محســن مفضل، فضله عظيم، إحسانه دائم، كرمه ظاهر، فاطمأن قلبه، كما وصفه ربه، فقال تعالى:

(٢٣) ومق: وثق.(المجلة).

(٢٤) مئق: كاد يبكي.(المجلة).

(٢٥) تئق: تئقت إلى لقائه: تُقْت.(المجلة).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾

(الرعد : ٢٨)

وقال الله تعالى :

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾

(الزمر : ٢٣)

فبين أن القشعريرة إنما هي من الخشية، فإذا ذكروه في كرمه وجوده، ورأفته ورحمته، لانت جلودهم وقلوبهم.

قال له قائل: فما بالنا نسمع هذا العلم فنفهمه ونعقله، ولا يبقى على القلب منه شيء؟ قال: لأن نيران الشهوات في الخوف قد التهبت، فهي نيران سود، مظلمة بالهوى، وهي مؤدية إلى نار الله الكبرى، فإذا التهبت ارتفع إلى القلب، وأحرق تلك الأنوار، فخلا القلب من الموعظة والعلم الذي عليه، وهي شبيهة بالنار التي تلهب حمرتها، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه، كلما ألقيت عليه قبضة من شيء، أو رششت عليه قليل ماء، انطفأ قليلاً ثم التهب، فكذلك صاحب الشهوة، إذا سمع الموعظة ذبل قلبه، وتخسفت نفسه، لما يصل إليه من الخوف؛ لأن الوعيد مما تنكسر به النفس، وتخمد شهواتها؛ ألا ترى أن الرجل يكون في لذة من لذات

الدنيا ونشـاط، فإذا بلغه وعيد من السـلطان انكسـر، وذهب نشـاطه، فوعيد الله تعالى لو خلـص إلى القلب، لكانت النفس والشـهوات أشد انكسارًا، ولكن لا يصل ذلك إلى القلب، فهو صلب أبدًا، فرح مرح، أشـر بطر، فهو ينور بلهب، فإنما يطفأ بالماء الكثير الغالب، وهو العلم المؤدي إلى الخوف والوعيد، وليـس يوجـد هذا، فمـا الحيلة فـي ذلك؟ قال: إنـا لا نعلم له حيلـة، إلا أن يمنع من إلقاء الحطب عليه، فإنه متى زاده وقودًا اتقـد، ونار والتهب وقـوي، ومتى ما حبس عنـه وقوده خمد، حتـى يصير رمـادًا، ويذهب حر التنور؛ كذلـك هاهنا، يحبس عنها الشهوات حتى تخمد، فتذهب فورتها والتهابها، فحينئذ تتخلـص أنوار القلب، ويقوى ويعمل العقل عمله، ووجدنا في مبلـغ علمنا أن الذي جـاء في الحديث عن رسـول الله ﷺ، أن النـار تنادي يوم القيامة للمؤمن: جـز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي (شـعب الإيمان للبيهقي بنحـوه: ٣٦٩)؛ هذا معناه أن من عالج شـهوات نفسـه وهواه حتى يقهرها وتتخلص أنواره، ويقـوى على قلبه، فقـد أطفأ نور قلبه نيران شـهواته المظلمة بالهـوى، فهو النور يـوم القيامة، حتى يطفئ ذلـك النور لهب النـار عنه؛ ومن لم يعالج هذا من نفسـه، وخـرج من الدنيا مع هذه النيران سـوداء مظلمـة، خفت من ألا يقـوى نوره على أن يطفـئ لهب النيـران على الصـراط، لأنه لم يكن لـه نور على القلب يطفئ نيران شهواته، وخرجت منه أعمال البر محترقة، مخلطة برياء؛ لأن عامة ما يعمل من الطاعات إنما يعمل بهواه،

وبمـا يخف عليه، وبما تنشـط له النفس وتسـتحليه، لا ينظر إلـى ما يختار الله له، ولا يقبل علمه من ربه، إنما هو عامل لربه على التملـك والاقتدار، والاختيار للأحـوال، حتى ربما حمله ذلـك على ترك الواجب، في جنب مـا يتطوع به، وهذا موجود فـي الخلق، ترى الرجـل يصلي بالليل، ويعـق والديه، ويصوم النهار، ويسـوء خلقه في شأن فطوره وسحوره، ويغتاب الناس، وينفق في أعمال البر، ويكتسـب الشبهات، ويعود المرضى، وينقـل الجنائز، ويؤذي المسـلمين، ويطلـب عوراتهم، ويود الأباعد، ويقطع الأرحام فهذا رجل جاهل بربه، يعبده بالهوى، كلما هوى أمرًا ركبه، وكذب فيما يقول إني أريد به الله. وإنما أتى فسـاد الخلق من إهمال النفـس، وترك تأديبها، وقلة النظر في أمر الله تعالى، وجهلهم به، فلو عرفوه لاسـتراحوا من خدع النفـس ودواهيها؛ لأن النفس إنما تطمـع بمخادعة من يجهل ربه، فأما العلماء بالله، العارفون بالنفس، والشـيطان أقل وأذل هناك أن يطمعها في خدعهم؛ لأن النفس إنما تظلم وتوسـوس على القلب الشهواني، الذي قد أسره الهوى، وليس لنور الطاعة في القلب ما يغلب الهوى والشـهوات، وإنما القوة الغالبة نور المعرفة، فمن استنارت معرفته كانت أموره على بينة ومعاينة، وذلك قوله تعالى:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾
(الزمر: ٢٢)

فوصف رسول الله ﷺ علاماته بالإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله، ومنه قول حارثة: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، فقال رسول الله ﷺ: عرفت فالزم؛ من سرّه أن ينظر إلى عبد نوّر الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى هذا. وما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال له رجل: علمني غرائب العلم. قال: ما صنعت في رأس العلم؟ عرفت الرب؟ قال: نعم. قال: فما صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله. قال: هل عرفت الموت؟ قال: نعم: قال فما أعددت له؟ قال: ما شاء الله. قال: اذهب فتعلم رأس العلم، ثم تعال أعلمك غرائب العلم (حلية الأولياء عن عبدالله بن المسور).

أفلا ترى أنه أمره بتعلم المعرفة، وسماه رأس العلم، فقد كان مسلمًا؛ لأنه سأله أن يعلمه غرائب العلم، وأنه كان أخبر بتلك المعرفة؛ فلما سأله: هل عرفت الرب؟ أجابه عن معرفته، فلما سأله عن الامتحان عما صنع في حقه، انقطع الرجل، فقال ما شاء الله.

وما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثنا بذلك صالح بن محمد، قال: حدثنا القاسم العمري، عن عاصم بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه: أن رجلًا أثنى على رجل عند عمر رضي الله عنه فقال: صحبته في سفر؟ فقال: لا. قال: فأتمنته على شيء؟ قال: لا. قال: ويحك! لعلك رأيته يخفض ويرفع في المسجد.

ومثــل ذلك عندنا مثل رجــل رأى قومًا لم يعرفهم إلا بالوجوه هكذا، فتعرف أحوالهم، فوُصف له القوم رجلا رجلا، فقيل له: أمــا هــذا الواحد فهو عالــم لا يوجد له في الدنيــا نظير، لتبحره فــي العلم، فعظم فــي عينه، وأخذ من قلبه شــعبة؛ ثــم قال له: هــذا الرجل الآخــر غني، لا يوجد له في الغنــى نظير، فعظم في عينه، وأخذ من قلبه؛ ثم قيل له: وهذا الآخر كريم، لا يوجد له فــي الكرم نظيــر، فعظم في عينه، وأخذ مــن قلبه؛ وقيل له هذا الآخر صانع الأشياء، لا يوجد له نظير في كل صناعة، فعظم في عينه، وأخذ من قلبه؛ قيل له: وهذا الآخر كفيل، يكفل الأرامل والأيتام، والضعفاء والفقراء، لا يوجد له نظير في رأفته ورحمته، فعظم في عينه، وأخذ بقلبه؛ ثم قيل له هذا الآخر شكور، عارف بالحقــوق، إن أتيت أدنى شــيء شــكرك الكثير، ونشــر عليك الجميــل، فعظم فــي عينه، وأخذ مــن قلبه؛ ثم قيل لــه: ولهذا مملكــة وعز، ومنعة وســلطان، قــد ملك المشــرق والمغرب، فعظــم في عينه، وأخذ من قلبه؛ ثم قيل له: وهذا قوي لا يطاق، لــه قوة ألف رجل مــن الرجال، فعظم في عينــه، وأخذ من قلبه؛ فــكل رجــل منهم يوصف بواحــدة من هذه الخصــال، يأخذ من قلبك شعبة، ويعظم في عينك شأنه، وقبل ذلك لم يكونوا على قلبك هكذا؛ فلو أن هذه الخصال كلها جمعت في رجل واحد، لــكان يعظم في عينك، ويكبر شــأنه في صدرك، وتعظم منزلته عنــدك، ويأخذ بقلبك كله؛ فهذه الأشــياء لو اجتمعت في رجل

واحد كانت عارية، وهي عطاء من ربه، فعندئذ لا يكون من ملكه رأس إبرة وهو مخلوق يفنى ويبلى، فكيف بالعالم الذي لا يشبه علمه وغناه، وجوده وكرمه، وحلمه ومجده، وبهاؤه وجماله، ورحمته ورأفته، وقوته وقدرته، وسلطانه وبصره بالأشياء، شيئًا مما عند الآدميين، وإنما اتفقا بالاسم، فأما الأشباه فتعالى ربنا رب العالمين عن أن يشبهه شيء من خلقه؛ فإذا عرفت هذا من ربك فكيف يكون على قلبك أموره، ووعده ووعيده، وضمانه وكفالته وقوته؟ فمن استنار قلبه بالمعرفة سكن قلبه واطمأن إلى ربه، ووثق بقوله، فعظمت منزلة المؤمنين عند الله تعالى، حين قبلوا الإيمان بالجملة، ثم أستأداهم الوفاء عند النوائب، فمنهم من وفى، ومنهم من سقط، وبقي في الطرق، فأظلم عليه الهوى، ووقع من التخليط في الذنوب؛ ومنه ما حذر الله صفيه داود عليه السلام فقال:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾

(ص: ٢٦-٢٨)

فالإنسان مطبوع على سبعة أخلاق : على الغضب ، والرغبة ، والرهبة ، والشـهوة ، والغفلة ، والشك ، والشرك . فالخلق كلهم أقروا بأن الله تعالى فطر الناس عليها ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾

(المؤمنون : ٨٤- ٨٩)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

(العنكبوت : ٦١)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(العنكبوت : ٦٣)

فأقروا له تعالى بالربوبية من غير عقل ، ثم أشـركوا به غيره في ملكه ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾

(يوسف : ١٠٦)

فأقــروا لله بالربوبية، ثم أشــركوا فيه لأنهــم نطقوا من قلب مظلم، وقد ضرب الله تعالى لهم مثلاً في كتابه فقال:

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ ﴾.

(البقرة: ٢٠)

وقال:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾.

(البقرة: ١٧)

فأقــروا لــه بالربوبيــة، ثم غفلوا عنه ونســوه، فهذا الشــك والشرك والغفلة فيه، ثم الغضب مركب فيه، والشهوة كذلك، فالرغبة فــي النفس من قبل النفس، والرهبة في النفس من أجل النفس، والخلق بهذه الصفة من مات منهم فإن جهنم موعدهم، لها ســبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقســوم، فإنما قســمت على الأبواب هذه الأجزاء لهذه السبعة الأخلاق، فكل من غلب عليه خلق من هذه الأخلاق نســب إليه، وألقي في ذلك الباب، وعذب في ذلك الدرك. وما يصدق ذلك ما جاءنا عن رسول الله ﷺ، قال: «للنار باب لا يدخل منه إلا من شــفى غيظه بســخط الله تعالى» (شــعب الإيمــان عن ابن عبــاس: ٧٩٧٨)، حدثنا بذلــك أبي -رحمه الله- قال: حدثنا عبد الله بن نافع الدينوري، عن إسماعيل بن شيبة الطائفي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن

ابــن عبــاس -رضي الله عنهمــا- عن رســول الله ﷺ، قال: «من منّ الله عليه من ولد آدم بالمعرفة، وجعل له نورًا يمشــي به في الناس، كان له وليًا، يخرجه من الظلمات إلى النور، وكان ميتًا فأحياه». ووصف ذلك كله في كتابه، فقال تعالى:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾

(الأنعام: ١٢٢)

وقال:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

(البقرة: ٢٥٧)

وقال:

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

(النور: ٤٠)

وقال:

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾

(النور: ٣٥) فوصفه إلى آخر الآية.

قال:

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾

(الأنعام: ١٢٥)

ثم قال:

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾،

(الأنعام: ١٢٧)

إخبار عن المنة عليهم. فلما استنار قلب المؤمن بالنور الذي أعطى، نطق لسانه بتوحيده، وعرف قلبه ربه، وصدقه في وعده ووعيده، فاستسلم وألقى يديه، فذهب عن الشك والشرك والغفلة، فتيقظ وأيقن وأخلص، وبدّل بالغفلة اليقظة، وبدّل بالشك اليقين، وبدل بالشرك الإخلاص، وبقيت فيه الشهوة والرغبة والرهبة والغضب، وكلما ازداد العبد في إيمانه نورًا وقوة وشعاعًا، تنقص من الغضب والشهوة، والرغبة والرهبة، فكل مؤمن على قدر إيمانه يكون من هذه السبعة باقية فيه، يغفل عن ربه، وتعتريه الظلمة كالشك وليس بالشك، ولكنه ريبة القلب واضطرابه وتغيره، كالشرك وليس بشرك، ولكنه شرك الأسباب الموضوعة، فيتعلق بالأسباب، يكون اعتماد القلب على الأسباب، وينسى ربه، لا لأنه يجحده، إذا ذكر أقر، وإذا نسي تعلق قلبه بالأسباب، حتى يفتتن، والأسباب مثل الحصن يدخل فيه الخائف، والسلاح يأخذه فيتقوى، فيكون اعتماده على الحصن والسلاح، وينسى ربه، وكالدواء ليستشفي به، فينسى ربه في شأن الرزق، يطلب ويسعى ويغفل عن ربه حتى يفتتن، فإذا ذكر لا يعمل فيه ذلك الذكر، وجميع الخلق أسباب، القلب حائل بينه وبين رؤيته ذلك من ربه، وهو سبب المعصية والفتنة؛ فإذا استنارت معرفته فعملت، كانت كالشمس تشرق في قلبه بالأسحار، ولا ظلمة ولا غبار، فصارت الأشياء له معاينة، فتخلص القلب حينئذ من الأسباب، إلى ولي الأسباب، ومنه قول عيسى بن مريم عليه السلام: لو أن رجلًا مستكمل

الإِيمــان يهز جبلًا لزال عــن مكانه ؛ ومنه قوله لبعض الحواريين حيــن أراد أن يلحقــه في البحر ، فيمشــي على المــاء معه : هات يدك يا قصي الإِيمان ، ثم مشــى به في موج البحر ، فقال : خفت الموج ؟ قال : نعم . قال : ألا خفت رب الموج ؟ ومنه قول رسول الله ﷺ : مــن أحب لله ، وأبغض لله ، ومنع لله ، وأعطى لله ، ونصح لله ، فقد اســتكمل الإِيمــان (رواه أبو داود عن أبي أمامة بنحوه : ٤٦٨١) . ومنــه قوله ﷺ لســلمان ﷺ : قل اللهم إني أســألك صحة في إيمان ، وإيمانًا في حســن خلــق ، ونجاحًا يتبعه فلاح ، ومغفــرة منك ورحمة ورضوانًا (رواه النســائى عــن أبى هريرة : ٩٧٦٥) .

وفــي هــذا الباب حديث كثير عن رســول الله ﷺ ؛ ومنه قول الحسن البصري –رحمة الله عليه– في تفسير قوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾
(الأنبياء : ٩٤)

قال : غير مستكمل الإِيمان :

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (طه : ٧٥ ، ٧٦)

أي تطهر من الأســباب ، وهو هذه الأخلاق السبعة ، فهم أهل الدرجات العلى في جنات عدن ، وهم الصديقون رفقاء الأنبياء ؛ فمــن هاهنــا قالوا بزيادة الإِيمان ، ســموا هذا النــور الذي يزداد العبد بربه معرفة به إيمانًا ، كالشمس شعاعها الذي يقع بالأرض

تسميه شمسًـا ، والذي يطلع في المجرى تسـميه شمسًا ؛ لأن هذا منه ، ومنه قول رسول الله ﷺ : إن من أمتي رجالًا حال بينهم العري عن أن يأتوا مصلاهم ، يمنعهم إيمانهم أن يسألوا الناس ، منهـم أويس القرنـي ، وفرات بن حيان العجلـي (حلية الأولياء عن محارب بن يسار بنحوه) ، رحمة الله عليهما . حدثنا الفضل بـن محمد قال : حدثنا زهير بن حـرب ، حدثنا ابن مهدي وعبد الله بن الأشـعث ، عن سـوار ، عن محارب بن دثار ، عن رسول الله ﷺ بذلك ، فسـموا هـذا النور إيمانـا ، وذلك جائز فـي اللغة ؛ وعلـى هـذا التأويل قول الحسـن –رحمه الله– «غير مسـتكمل الإيمان» ، أي لم يسـتكمل النـور ؛ فوجدنا التبحر في العلم بالله بحسن المعرفة يملأ القلب نورًا ، يحرق ذلك النور جميع نيران النفس ، من الشهوات الهاوية في القلب إلى الإخلاد والتمكث ، فلذلـك تراه في الآخرة يطفئ نوره نيران الآخرة والتمكث على الجسر ، وهكذا صفة المؤمن يومئذ على الجسر . قلنا كان أصل هـذا الأمر ، والمـدار عليه ، هو الإيمان به ، وحسـن المعرفة له ، كما وصفنا ، من السكون والطمأنينة ، والثقة به ، والركون إليه ، على قدر ضعف اليقين وقوته ، كما ذكرنا بديا ؛ امتحن الله تعالى بفرائضه وحدوده وأمره ونهيه ، ونهاهم عن أشـياء ، وشـهوات تلك الأشـياء مركبة فيهم ، وأمرهم بأمور ، فثقل عليهم إتيانها ، وحد لهم حدودًا ، فمد لهم هواهم إلى مجاوزتها ، وإلى التقصير فيهـا ، والقعود عن إتمامها ، ليظهر ما فـي ضمائرهم ، ومقادير إيمانهـم في الضعف والقوة ، لخلقه من في السـماوات والأرض

والملائكة وسائر الخلق، لكي إذا رفع بعضهم فوق بعض في الدرجات، لم ير أحد من خلقه من الملائكة والسماوات والأرض وسائر الخلق أحكامه بين عباده إلا جميلاً؛ وابتلاهم بالطاعة، وبالحدود والفرائض، والأمر والنهي، فقال:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾.

(محمد: ٣١)

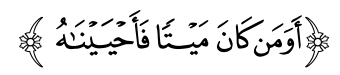
أي يستخرج أسرار ضمائرهم، حتى يكون عذري يوم القيامة قائمًا، وأمري ظاهرًا، فلا يرى خلقي مني ذلك إلا حسنًا جميلاً ومعروفًا؛ فلما علم أنهم يضيعون حدوده وفرائضه، من أجل الشهوات المركبة فيهم، وضعف الإيمان، وقلة اليقين، علم أنه سيكون من هذا الخلق أمور تحدث أسبابها من الهوى والشهوات، وقلة المعرفة بأمور ربه، وضعف اليقين، وزجرهم عن أشياء رحمة منه عليهم، وتعظيمًا لهم؛ لأن من آمن ودخل في ولايته وحزبه صار سعيدًا بجنته، فحرم دماءهم وأموالهم وأعراضهم، بعضهم على بعض، وحرم عليهم الغيبة، والبهتان، والزور، والتجسس، وسوء الظن، وهتك الستر، وطلب العورات، والجهر بالسوء والأذى، وحرم عليهم الزنا؛ لأن فيه الغيرة والأذى بعضًا لبعض، وحرم الخمر؛ لأن فيها الأذى وتلف النفس وإهلاكها، وحرم الربا، ودل على المواساة والتقارض، وقال:

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

(البقرة: ٢٣٧)

ففــي ذلك دليل علــى حضهم، ومنع بعضهــم من بعض، وحضهم على البر بعضهم لبعض، إبقاء عليهم، ومرفقًا لهم؛ لأنهــم أهل خاصته وصفوتــه، ودعا إلى الصلـوات الخمس، ليطهر أبدانهم، ودعاهم إلى الزكاة ليطهر أموالهم، ودعاهم إلــى الجمعــة، ليطهر خطاياهــم، ودعاهم إلى الحــجّ، ليعتق رقابهــم من عظائــم الإِثم، ودعاهم إلى صلــة الأرحام، ليرحم بعضهم بعضًا فيرحمهــم، ودعاهم إلى الجهاد، ليتخذ منهم شــهداء، ويرفعهم في الدرجات، ثــم دعاهم إلى نوع آخر من العبــادة، ودعاهم إلى بر الوالدين، ليقوم بشــكرهما من أجل التربية؛ لأنه يبغض الكفور، ودعاهم إلى الإِحسان إلى الجار، وإلــى ذي القربــى، وإلى الصاحــب بالجنب، وإلــى الضيف والمملـوك؛ وكل هــؤلاء أهل حقوق؛ ودعاهم إلى الإِحســان إليهــم، ليكون ذلك شــكرًا لهــم؛ فهذه الأشــياء كلها عبادة تعبدهم بها.

فأمــا أصل الأمــر، فهو ما وصفتــه لك فــي أول الكتاب، أنه دعاهم إلى أحكام المعرفة، حتى يســكنوا إليه، فقلب العبد من قبــل أن يؤمن أغلف، وللقلب عيــن وآذان، فإِذا كان العبد ممن خلقه الله تعالى للرحمة، وسبقت له منه الحسنى، جعل له ذلك النور كما نطق به الكتاب، فقال:



(الأنعام: ١٢٢)

أي بذلك النور؛ وهو قوله:

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ .

(الأنعام: ١٢٢)

ولا نرى ذلك النور إلا ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فقد علم من يصيبه ومن يخطئه، ثم أخرجهم يوم الميثاق بيضًا وسودا، ثم استنطقهم يومئذ» فبلغنا عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: فأقروا له بالربوبية، طوعًا وكرهًا وتقية، فذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾

(آل عمران: ٨٣)

حدثنا بذلك عن ابن عمر، وعن أسباط، عن السدي، عن أبي صالح، وأبي مالك، عن ابن عباس. ثم قال تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ .

(النور: ٤٠)

وقال:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾

(الزمر: ٢٢)

فلما حيي القلب بذلك النور، صار سميعًا بصيرًا، وروى عن الحسن -رحمة الله عليه- تفسير هذه الآية:

﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾

(مريم: ٩٧)

قال: صم آذان القلوب، وعلى تأويل قوله تعالى عندنا:

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾

(الأعراف: ١٩٨)

وقال تعالى:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

(يس: ٧٠)

فالحي هو المؤمن، فلما صار قلب هذا العبد منورًا بما رحمه الله، وقسم له في سابق علمه، صار القلب بلا غلاف، وأذن له ربه بالإيمان به، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾

(يونس: ١٠٠)

فذكر هاهنا الإذن للنفس، ثم ذكر القلب، فقال:

﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾

(الحجرات: ٧)

فذكر تعالى فعله بالقلب ماذا فعل، وذكر فعل النفس أنها قد آمنت، وبماذا آمنت، فخرج القلب من الغلاف، كسحابة، انقشعت عن شمس، فاستنار، وسمع عن الله تعالى، وأبصر الغيب، فصار مجتبى من أهل جباية الله تعالى؛ وذلك قوله -عز وجل-:

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾ .

(الحج : ٧٨)

وصار موسوما بسـمة الله ، وهو ذلك النور الذي أصابه ، فلما أهينـت النفس ، وانقادت للقلب ، قبل القلب ما سـمع عن الله ، وأبصر بالغيب ، وعقله وعزم عليه ، صار موسوما بسمة الله ظاهرا وباطنـا ، فقيل هذا مؤمن ، وهذا مسـلم ، لأنه قـد آمن ، ولأنه قد أسلم وجهه إلى الله ، ومن أسلم الوجه إليه ، فقد أسلم إليه بكله ؛ لأن الوجه اسم جامع ؛ ألا ترى أنك تقول في اللغة للسائرين بين الناس : رأيت وجوها كثيرة ، فدخل فيه البدن كله ، والمؤمن إذا آمـن وقبل أمره ، فإنه يعمل على تسـليم نفسـه إليه ؛ لأن إيمانه إنمـا آمن بأنه ربه ، فرقبته له ، وجميع مـا ملكت يمينه له ، فقد سلم إليه نفسه وملك يمينه ، فهو المسلم ، قال تعالى :

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾

(الحج : ٧٨)

أي : في اللوح المحفوظ .

﴿وَفِي هَٰذَا ﴾

(الحج : ٧٨)

يعني في القرآن .

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾

(الحج : ٧٨)

أي : إذا جـاءت الأنبياء ، فسـئلوا عن تبليغ الرسـالة ، فادعوا البلاغ ، فأنكرت الأمم ، وقالوا : لم تبلغنا رسـلك أمرك ، فنسلم

أنفسنا وملك يميننا لك، ونأتمر بأمرك، فأنتم أهل تسميتي، الذين سميتكم مسلمين، بأنكم قد سلمتم إليّ أنفسكم، فيشهد لكم بذلك الرسول الذي بعثته بالمقام المحمود، الذي يغبطه الأولون والآخرون، فبلغنا في الحديث: «وتشهدون أنتم لرسلي على أممها التي لم تسلم لي نفسها، فبهذا صرتم شهداء رسلي، وحجتي على خلقي».

فلما فتح القلب عينه أبصر وسمع لما حبب إليه الإيمان، أي وصل إلى حبة قلبه، وتزين ذلك في قلبه، انقاد لربه، ألقى بيديه إلى ربه سلمًا، جاءت النفس بظلمها وظلمتها، وهي الهوى، فوقفت بين يدي القلب، صار على القلب كالغشاء أو كالسحابة المظلمة، فقيل غفلة، والأول كانت غلفة، فلما ذهبت الغلفة، حيث جاء النور، وبقي الهوى غفلة. وقد نجد مثل هذا كثيرًا في اللغة، يقال: جبذ وجذب، وكشر وشكر، وزرق ورزق، ومجر ومرج، وحدج وجحد، وعلم وعمل، وغرف وغفر؛ ومثل هذا كثير، كلاهما مرجعهما إلى معنى واحد، ولكنهما اشتقا، فاستعمل هذا في نوع، وهذا في نوع، والآخر في نوع، وإن كان القالب يختلف على فعل وعفل، فإن الاشتقاق من معنى واحد، وخولف في القالب للاستعمال في نوعه، ليعرف باختلاف القالب نوعه الذي عني به؛ وكذلك العفل أيضًا مثله، فقيل كشر إذا تبسم فبدت أسنانه؛ وإذا بدا لقلبه فرأى نعمه إليه من الأسباب شكر؛ لأن النعم قد بدت له، وكذلك قوله رزق، وهذا فيما بدا إليه من الأسباب في مطعمه ومعاشه، وهذا فيما بدا إليه

بالسبق، فيرزق به؛ وكذلك يقال في الحربة والمزراق، فكذلك الغفلة والغلفة، معناه عندنا أن الغلفة في وقت الكفر، والكفر هو الغطاء، فإذا ذهبت تلك الغلفة، ورفع الله الغطاء بمجيء النور، بقيت الغفلة، وهو الهوى قائمًا فيما بينه وبين ربه، وكان للقلب حجابان: حجاب غطى ظلمة الكفر، فإذا ذهب الغطاء بقي الحجاب الآخر قائمًا بينه وبين ربه تعالى، فهو الذي يغفله وينسيه، وهي التي تسمى غفلة؛ فلما صارت هذه النفس قائمة بظلمة هواها، وتلظي نيران شهواتها، بين قلب العبد وبين ربه، بعد أن أسلم له وانقاد، واعترف وقبل أمره، وعزم عليه، فهو يتعاصى عليه، وتستأديه الشهوات التي حرمت عليه، وتزلزله في شأن الرزق، وتوسوس إليه في نوائبها وأمورها، على تدبيرها المنكوس، وجهلها المظلم، والرب الرحيم الرءوف به، قد اختار له غير ذلك، مما هو أرفق به، وأبر له، وأزين به وأفضل، فقد شغل القلب النظر إلى ما يبدو له من تضاربه وتدبيره له، فحديث النفس وسوسة تدبيرها؛ وخيبته ومنته وأشقته وألهته، وأظلمت عليه الصدر، وهي سلاح عدوه الشيطان الرجيم، بها يخدعك ويوسوس لك، ويزين لك، ويعين هواك عليك، فلذلك قيل عن رسول الله ﷺ: إن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك. فلما كنت بهذه الحالة وقد ألقيت بيديك إلى الله سلمًا، بما جعل في قلبك، أمرك بمجاهدته، فقال تعالى:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾

(الحج: ٧٨)

وأنبأك في كتابه شأن النفس والهوى، في آي كثيرة، منها ما ذكر عن قول يوسف حيث قال:

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾
(يوسف: ٥٣)

وحيث قال لداود :

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(ص: ٢٦)

وقال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾
(النازعات: ٤٠)

فأمره بالمجاهدة حق المجاهدة، ثم أيدنا وشجعنا، فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾
(العنكبوت: ٦٩)

فسماه محسنًا، ووعده أن يكون معه، ومن كان الله معه فهو المنصور لا يغلب؛ فوعدك على المجاهدة حق جهاده، أنه هو الذي يلي هدايتك سبيله. هذا ثوابه في العاجل، فكيف بثوابه في الآجل، إذا قدمت عليه غدًا بالمجاهدة، وبثمرة المجاهدة، فإن الهداية صارت ثمرة المجاهدة، وبالهداية نلت ولاية الله تعالى، وبولاية الله نلت قربة الله وزلفاه. ثم قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾

(الحج : ٧٨)

أي كمـا جعلتك من أهل جبايتـي ، جعلت لك نورًا ، وفتحت عينـي قلبـك ، وفتحت أذني قلبـك حتى عرفتنـي ، فالآن جاهد في ذاتي هواك وشـهوات نفسـك ، حتى يظهر انقيادك لأمري ، ويعـز ديني ، وتعلو طاعتـي . والمجاهدة على قالـب المفاعلة ، والمفاعلـة لا تكون إلا من اثنيـن ، إلا في النادر في الكلام ، فأما العام فإنه من اثنين ، فكأنه قال :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾

(الحج : ٧٨)

وقال في آية أخرى : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾

(الحج : ٧٨)

أي امتنع من شـر النفس وحربهـا وعداوتها بالله تعالى ، فـكأن النفـس عـدوك ، يرميـك بسـهم الشـهوة ، والهوى يقويها ، وهي مظلمة ، لا تسـتعين بالله عليك ، وأنت ترميها بسـهم المعرفة والعقل ، وتسـتعين بالله تعالى عليها ، فأنت المنصور ، لأنك بالله تجاهدها ، وهي تجاهدك لا بالله ، فدلك ربك على الاعتصام منها به ، ثم وعدك النصر ، وشجعك على المجاهـدة ، فقـال : ﴿ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ ﴾ : أي يلي نصرتكم ، ثم قـال : ﴿ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ : ينبئك وهو يملك كثرة النصرة ومتابعتها ، فإذا تركت الاعتصام به خذلك ، وخذلانه

أن يمنع النصرة، فإذا منع النصرة، فجاهدت النفس، رمتك بسهام الشهوة والهوى، فرميتها بسهام المعرفة والعقل، لم تغلبها وغلبتك؛ لأن العلم والعقل والمعرفة في القلب، والهوى والشهوة خارج من القلب، قائم بين القلب وبين الرب، قد أظلم على سمعك وبصير عيني قلبك بغشاوته، فسجن ما في القلب، وغلب على القلب، فصار بمنزلة سراج في بيت، والسراج في الفخار، وعليها غطاء، فالبيت مظلم، فإذا انكشف الغطاء أبصر ما في البيت، مما يضر وينفع، فإذا جاهدت النفس، فاعتصامك به في ذلك، ذكرك إياه بأنك لا تستطيع دفع هذا إلا به، واستغناؤك به هو الذي يغنيك ويعينك، فينصرك، وكيف لا يعينك وقد أمرك بأن تقول:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(الفاتحة: ٥)

فيأمرك بالقول بهذا حتى تسأله ثم لا يجيبك! وقال تعالى:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾

(النمل: ٦٢)

ثم لا يجيب ولا يكشف! تعالى الله عن ذلك، وإذا نسيته في ذلك الوقت، منع النصرة، لتركك ذكره، ولاقتدارك في الأمر، وكيف لا يعاقبك بمنع النصرة وقد نسيته، واقتدرت

فــي أمره، وقد أمــرك بأن تقول لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فمن اقتدر في أمره والأمر كله لله، والخلق لله، والقدرة لله، عوقب بأن يخــذل، وعرف بالخذلان أن اقتــداره كان خطأ، وأنه لا يقدر إلا به، وقال تعالى:
﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾؟

(آل عمران: ١٦٠)

قال له قائل: فما النصرة؟ هل يمكن أن توصف؟

فقــال: إن نــور المعرفة في القلب، حتــى يخرج إلى عين القلــب، والهوى قائم على القلب حجابًــا، فإذا جاهد العبد هذا الهوى حق المجاهدة، وحق جهاده هو غاية طاقة العبد، فنصرتــه أن يهديه ســبيله، وهو أن يجعل لــه طريقًا من قلبه إليــه، حتى يصير عيــن قلبه كأنه يراه من غيــر كيفية، وهو قول جبريل لرسول الله ﷺ حيث سأله عن الإحسان، فقال: «أن تعبــد الله كأنك تــراه». وقال في حديث آخر: «إن أقوامًا أيقنــت قلوبهم، حتى كأنهــم عبدوا الله علــى رؤية» (حلية الأولياء). وقال ابن عمر -رضي الله عنهما- في حديث: إنا كنــا نتراءى الله تعالى بين أعيننــا في الطواف. حدثنا بذلك قتيبة، عــن محمد بن منير، عن ابن أبي رواد، عن نافع، عن ابن عمر. وقال في حديث حارثة، حيث قال رسول الله ﷺ: كيف أصبحت؟ قال: مؤمنًا حقًا. فسأله عن الحقيقة، فقال:

كأني أنظر إلى ربي على عرشــه. هذا في رواية، حدثنا أبي، عــن ابن أبي حبيش، عن عبد العزيز بن أبي رواد. وأما رواية ثابت عــن أنس، فإنه روى: كأني أنظر إلى عرش ربي. وهذا النوع في الآثار كثير.

وإنمــا أدرك هــذا حارثة بمجاهدات النفــس؛ ألا ترى إلى قوله: عزفت نفســي عن شــهوات الدنيا ولذاتها. فهذا قطع الهوى، فإذا قطعه هــداه الله طريقه، فإذا نظر صار كأنه يراه بلا كيف؛ وهكذا وعد في كتابه، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾

(العنكبوت: ٦٩)

فــإذا هــداه طريقــه، لم يبــق علــى قلبه حجاب للشــهوة والهوى، لأنه فتح طريق قلبه إليه، فحينئذ يمكنه السـكون إليه، ويطمئن القلب، ويثق بوعده، ويأتمنه على نفسه، ألا ترى إلى قول الرسول حيث حكى عنهم، وقالوا:

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾

(إبراهيم: ١٢)

فأخبــروا أنهم إنما قدروا علــى التوكل، وهو تفويض أمر النفــس إليــه، بأنــه هداهم لســبيله، فزال الحجــاب، أعني الهوى والشهوات عن بصر القلب، فلم يبق بين يدي قلوبهم شــيء يحجبهم، فصارت الأمور لهم كالمعاينة والمشاهدة.

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ حيث وصف القلب، فقال: أبصر الغيب بالغيب فآمن، أو كما قال. فهذه نصرة الرب عز وجل.

فإذا تركت المجاهدة على الحقيقة منعك النصرة، فبقيت مخذولًا، مأسورًا في يدي الشهوة والهوى، فإذا صار القلب مأسورًا، فهو كملك مأسور في يد العدو، فإذن يتعذر عليه الأعوان والجند، بل يذلون وينهزمون في الملاهي والأباطيل.

قال له قائل: فكيف تكون المجاهدة على الحقيقة، إذ قال حق جهاده؟

فقال: اعتبر مجاهد الظاهر، وامتثل رجلين: أحدهما سلاحه تام، وحمل نفقة سنة، وتجهز بما يحتاج إليه، ورافق في الطريق رفقاء، وتبسط في مسيره، وطرب مع رفقائه، وتلذذ برؤية الكون ولقاء الناس، وفرح بما نسب إليه من الجهاد والغزو، فقيل: هذا فلان الغازي، وطمعت نفسه في علو المرتبة، وارتفاع المنزلة عند الناس، واتخذ الجاه عندهم بذلك، ونال الكرامة في مسيره مقبلا ومدبرًا، وقلبه هاهنا معلق بحب الدنيا وما خلف فيها؛ فهذا حاله في الطريق، حتى إذا بلغ المنتهى، فعلى وده أنه لا يلقى عدوا أبدًا، ولا يسمع بذكره، فهو مقيم هناك مع حنين قلبه إلى شهواته ومناه التي خلفها وراء ظهره، حتى إذا لقي العدو،

وجاهـد مجاهدة مراوغ ليس له صدق القتال، يريد الروغان والنكـص على عقبه، والهرب، حتـى إذا انقضى الجهاد مرّ منصرفًا مسرعًا إلى شهواته التي حنّ إليها، وإلى مأواه الذي قد ألفه، ووطنه الذي قد اسـتوطنه، قد سـلم بنفسه، وسلم سلاحه ودوابه وعامة نفقته، فجاء به كما ذهب به إلا النفقة، مـا أنفق في مسـيره، وما أنفق أيضًا فقد طـرب إليه وتلذذ، وقضى مناه وشـهواته بتلك النفقة؛ فهذا قد سمي فعله هذا جهـادًا، فلم يكفر فعله، بل يعطى ثواب نفقته غدًا، وثواب عنائه وتعبه، وأنه كثر سواد المسلمين وأعانهم، وشايعهم.

ورجـل أخذته حمية الإيمان، فغار لربه، فخرج يقصد محاربة عـدو ربه، انتقامًا وتعظيمًـا على عدوه؛ أو رجل أيـس من نفسـه أن يخـرج منه خير ينجو بـه، ورأى قبح مذاهبه، وسـوء فعاله، فضاق به الأمر من شـراهة نفسه، وقلـة ضبطه لهـا، فاغتاظ منها، وحمى لربه على نفسـه ومقتهـا، وهالـه عظيم خطـره منها، فقدمهـا إلى العدو لتحاربه، لعله أن يرزق الشهادة، فيقتل ويغسل بدمه سائر جسـده، حتى يلقى الله تعالى طاهرًا من أقذار المعاصي. فهـذا رجل خرج بهذه النية، أو بتلـك النية التي غار بها لربه وحمى له، وهو أرفع درجة من هذا الذي برم بنفسه، وأراد التطهـر، فلمـا لقي أحد هذين العـدو، ونهمته في عامة مسـيره المحاربة، إما غيرة لربه وحمية، وإما طلب

تطهير لبدنه، والظفر بالشهادة، ظهر منه صدق اللقاء، فبادر وحارب وجاهد، فلم يلبث أن صار قتيلًا، وبالدماء مزمَّلا، وتبددت أعضاؤه من الضرب والطعن، وتبدد سلاحه هكذا وهكذا من نهبة العدو، وأخذت دوابه وجميع ما هناك، وتقبل الله روحه، فجعله حيًا، يرزقه عنده، فرحًا مستبشرًا بما آتاه الله من فضله، كما وصف تعالى في تنزيله قصة الشهداء، فقال:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

(آل عمران: ١٦٩)

فصار روحه مقبولًا، وصار عنده حيًا فرحًا، مستبشرًا مرزوقًا، من غير تعب ولا كد ولا عناء؛ فهذا حق الجهاد في طلب الجهاد؛ والأول رجل متحر للخير، طالب للثواب. فكذلك جهاد النفس حق جهاده، أن يصدق اللقاء، فلا تسلم منه نفس ولا مال، فإذا أخذ في المجاهدة خلصت الهموم والأحزان إلى النفس، وانقطعت اللذات والشهوات، وتغير اللون، ونحل الجسم، وضعف البدن، وذهب الفرح والتسلط، واشتغل القلب، فضعف عن طلب الدنيا، قد خلص النكص في المال، وتعطلت الأمور، ووجد المكاسب والأرباح، وأدبرت الدنيا ببهجتها وزينتها، ولذاتها وعزتها، وبهائها وملكها، وصافها وخدعها، وأقبلت الآخرة بحقائقها،

من البكاء والأحزان والاستكانة والصلاة والصيام والذكر والقرآن وأعمال البر، فشغل عن الأهل والولد، وعن التلذذ بقربهم، والأنس بهم، فصار الولد يتيمًا، والأهل كالأرملة، والمسكن وحشًا، وتعطلت الأوقات التي كان يتلذذ فيها عند الغداء والعشاء، وتبدل بها جوعًا ويبسًا، وبالضحك بكاء، وبالفرح حزنًا، وبالسرور غمومًا، وبالراحة نصبًا، وبالنوم سهرًا، وبالدعة تعبًا وضيقًا، وبالغنى فقرًا، وبالعز ذلًا، وبالمدح ذمًا، وبالثناء طعنًا وعيبًا، فلم تسلم نفس ولا مال ولا جاه ولا قدر إلا ذهب كله، فهذا قتيل الله قد تبددت نفسه وشهواته ومناه، وصار هواه كالقتيل، فتخلص روحه عن هواه، فتقبل الله روحه، وأحيا قلبه، ورزقه من حيث لا يحتسب، ووصل بقلبه إلى إلهه، ففرح واستبشر، فقلبه عنده فرح مستبشر حي؛ فمن هاهنا برّز الصدّيق على الشهيد؛ لأن الشهيد احتسب بنفسه على الله تعالى مرة واحدة، حتى قتل، والصديق يحتسب بنفسه، فلم يزل يقاتل هواه في كل حركة حتى قتل الهوى، فخلص روحه وقلبه من الهوى، فهذا غاية الصدق، فسمي صديقًا؛ لأنه لم يبق في نفسه منازع، فصار البدن كله لربه مبذولًا بصدق منه، لا منازعة للهوى فيه، فكما صار الصديق عنده في الآخرة حيا مرزوقًا، صار بالصدق هاهنا في القلب به مرزوقًا، فرحًا مستبشرًا بما آتاه الله من فضله، وكما صار الشهيد في الآخرة بعد أن وصل

إلى النعمة يشــتهي أن يرد إلــى دار الدنيا ، فيقتل فيه ، فصار منيته كذلك الصديق ماتت شــهواته ، فصارت منيته ونهمته فــي ذكره وعبادته ، ومنه قوله تعالــى في بعض الكتب : أيها الصديقــون ، تنعموا بذكرى ، فإنه لكم في الدنيا نعيم ، وفي الآخــرة جزاء . حدثنــا ابن أبي زياد ، قال : حدثنا ســيار ، عن جعفر بن ســليمان ، عن مالك بــن دينار –رحمه الله تعالى– ، قال : قــرأت في بعض الكتب : إن ســرّك أن تحيا وتبلغ علم اليقيــن ، فاحتل في كل حين أن تغلب شــهوات الدنيا ، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله .

أفــلا ترى أنه قال : إذا غلبت شــهوات الدنيا حييت ؛ لأن القلــب إذا كان فــي ظلمة الهــوى وغفلتــه ، كان كالميت ، وليــس بالميــت ؛ لأن الميــت قلــب الكافر ، وقلــب الغافل كالميــت ، وليس به حياة ، وقــال : إذا فعلت هذا بلغت علم اليقين . فعلم اليقين أن تعبده ســبحانه كأنك تراه ، وكذلك وصف الله تعالى علم اليقين في تنزيله ، فقال :

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾

(التكاثر : ٥ ، ٦)

فأخبر تعالى : أن بعلم اليقين ترى الأشياء

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾

(التكاثر : ٧)

أي غدا ، يعني الجحيم ،

﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾

(التكاثر : ٧)

فهـذا حـق الجهـاد ؛ وأما الآخر فإنـه رجـل أراد مجاهدة نفسـه ، فصـام أيامًـا ، ثم تـرك ، واجتنب بعض الشـهوات ، وتنـاول بعضًـا ، وحزن مـرة ، وفرح أخـرى ، وبكـى يومًا ، وضحك أيامًا ، وصام وصلى ، وسـاح مرة هكذا ومرة هكذا ، وحمـل على نفسـه مؤنًـا كثيرة ، وأتعب نفسـه مـن طريق أنـواع البر ، من سـهر الليل ، والحـج ، والجهاد ، إلا أن ذلك كلـه بهواه عمل ، حيـث طرب ونشـط ، لا بمجاهدة ، فهذا رجل يريد أن تسـلم له نفسه وماله ، ويقضي شهواته ومناه ، ويكـون مجاهـدًا ، فهـذا غير محقـق جهاده ، يعطـي ثواب التعب والعنـاء ، ويؤجر عليه ، ولكن لـم يحارب الهوى في كل موطـن حتى يقتله ، فيكون قتيل الله تعالى ، يقبل روحه ، فيحييه ، ويفرحه بنفسـه ، فالحرب مـن عندك ، والنصر من عنـد الله العزيز الحكيم ، فإذا نصرت قتلت هواك ، وتخلص روحـك منـه وقلبـك ، فقبله وحياه ونـوره ، وهـداه واجتباه ورعاه .

قال : له قائل : وما الهوى ؟

قـال جوهرة النفـس ؛ لأن آدم عليه السلام خلق من تراب ، فكان الهـوى هو عنصره الذي فيه جوهريته الترابية ، فكانت تلك الترابية متشـعبة في النفس ، وهـو صفوة غذاء الأم ، والهوى

تنفس النفس، وهــو كدورته، وأصل جوهريته، وهو مظلم، وهو قــوة غذاء الأم؛ لأن التراب مظلم، وأمك إنما ربتك من اللبن، ومما أخرجت الأرض، فلذلك قيل في الحديث: لكل شيء نفس، ونفس النفس الهوى، فما دام الروح فيك، فأنت كــون الروح، فإذا خرج منك، صار وجهك وجميع جســدك كأنه ذرّ عليك التراب؛ لأنه لما زال الروح تغير الجســد إلى جنسيته الترابية، فقد علم شهوات الأرض ولذاتها، وعرفها بذلك العنصر المنظلم المتشــعب. هنــاك له ميلان، يهوي إلى جنســه. فســمي هوى، لأنــه تهوي به النفــس، والنفس تهوي بالقلب، والقلب يهــوي بالأركان إلى العقل، والعقل يهوي بجميع الجســد غدا إلى النار، فمن هاهنا هواك يميل بك إلى نعيم الأرض، لأنه من جنسه، وإليه يحنّ، وله يألف، فهذه النفس مضطربة إذا حملت عليها أمر الله تعالى، كذلك الأرض لما حمل عليها الخلق اضطربت، فأسكنت بالجبال الرواسي حتى ســكنت. كذلك النفس، إذا اضطربت فإنما تســكن بالمعرفة، فكلما كانــت معرفتك أعظم وأثقل على القلب، كانت النفس أســكن، ومنه قيــل: الإيمان أثبت في قلوبهم مــن الجبال الرواســي، فحــب المحمدة والرياســة والعلائق والعلو بشــهوة العــز، وإنما أحب العز واشــتهاه، لاســتدامة نعمــة النفس؛ لأنــه قد علم أنــه إذا عز وعلا على الخلــق، أدرك منــاه، وجميع ما للجســد والنفــس فيه لذة،

ويكون قد قهر الخلق كلهم، حتى يكون كله على ما يريد، لا يخلفه أحد، فينال لذة جميع ما يهوى فيدعوك الهوى، ويميل بك إلى طلب اللذة، وقضاء الشهوة، فإذا خاف أن لا ينال ما أراد، قهر الخلق كلهم، وقد علم أسباب القهر، أنه إنما يكون بأخذ قلوبهم، أو بخوف في قلوبهم منه، لما يرون من عزه، ونفاذ قوله وأمره، فلما فهمت النفس أن نوال اللذات والشهوات التي هي النفس، علمتها في أخذ قلوب الناس، إما بمحبة مكتسبة، أو بتزين عندهم ومدحة، حتى ينظروا إليك بعين التعظيم، وإما بعمل يخافونك عليه، أحببت العز، واشتهيته وطلبته. فهذا كله إنما حصل منك من أجل نوال الشهوة واللذة التي في نفسك، حتى تظفر به، فما ظفرت به فقد سمنت عليه، وفرحت وبطرت وأشرت، وما لم تظفر به طلبت العز، وهي المنعة، لتقهر الناس، وتأخذ بقلوبهم، حتى لا ترد في أمر شئته، أو هويته وأردته.

قال له قائل: فما ثمرة هذا الهوى؟ قال: ثمرته أن يدعوك إلى أن تدّعي الربوبية، فمن هاهنا ادعى فرعون الربوبية، حتى يكون نافذ القول في شهواته ومناه، جائز الأمر، دعاه ذلك إلى أن قال:



(النازعات: ٢٤)

هذه ثمرتــه، ومن هاهنا ضاق الأمر بنمــرود، حتى احتال للقعــود فــي التابوت، ليطير به إلى الخالــق الأعلى، زعم أني أحارب إله الســماء، لــم يحتمل للضيق الذي حــلّ به من قوة شــهوته، وإرادة إنفاذ مناه، أن يســمع بذكر أحــد غيره يقدر على شيء، فأراد أن يطمس هذا الذكر، فأرى أهل مملكته أني حاربتــه فقتلتــه، بما رجع إليه من الســهم المدمى. هذا ثمرة الهوى الذي يهوي بك إلى قضاء الشــهوات، ودرك ما هو من جنسه، فاحذروه، فإن الصغيرة الضعيفة منه تقوى حتى تصير كبيرة قوية، ترمي بك في أودية المهالك، والمؤمن أنقذه الله تعالــى بالمعرفة من أن يدعي الربوبيــة، أو يقصد لمحاربته؛ لأن نفســه قد أيقنت، فأيست عن هذا المعنى، ولكن تطلب ما دون ذلك في أموره، فليس هذا له بحقيق ولا خليق.

فقد حصل من جميــع ما وصفنا إلى هذه الغاية، أن ظلمة هذه النفس الشــهوانية قد اســتولت على القلب، حتى عجز عن حفظ الحدود، وألا تنهى عما زجرت عنه، وإيثار ما أمرت به، وعن أداء الحقوق، وعن القيام بشكر إلهك، فحالت تلك الظلمــة عن رؤية الوعد والوعيد، وعن رؤية ربوبيته الظاهرة عليــك، وقدرته النافذة فيك، وفي الأشــياء كلهــا، فافترق النــاس في هذا الخطب العظيم فرقتين، فمنهم من أقبل على الحمية، ورفض الشــهوات، وآثر التنغيص على جميع لذات النفــس، حتــى ذلّ له وانقمع، فقــوي على وثاقــه، ثم قوي

على قطعه فقطعه، فأشرقت شمس معرفته من قلبه، وهو النور الذي فيه، فأضاء كل شيء. رأى بذلك النور الربوبية الظاهرة، والقدرة النافذة والسلطان القاهر للأشياء، وجري الأشياء كلها على مشيئاته وإرادته، فاستقام، ولم يبق من الهوى والشهوة حركة تميل به، وتهوي هكذا وهكذا، عن مشيئات ربه، وما استنار من قدرته النافذة، وربوبيته الظاهرة. ومنهم من ضعف عن هذه الأمور، لم يقدر على رفض الشهوات، وقطع الهوى، فما زال مفكرًا في قدرته، ومعتبرًا أمور الله -عز وجل- بقلب فارغ يريد الخير، مقبل على الله تعالى بمجهوده، فكان يزداد بذلك كل يوم يقينًا، وقوة نور في تلك المعرفة، حتى غلب نور المعرفة ظلمة الهوى، فحرقه ومزقه، وبدّده، فاستكان لربه في أموره؛ ومنهم من كان هكذا في جهد وطلب،

فأدركته رحمة الله تعالى، فجذب قلبه جذبة إليه، فصار من الله بمحل ومكان، بقطع الهوى، فصار دكًا، واستنار القلب بما فيه، وذاقت النفس من حلاوة قرب الله -عز وجل- ما لهت عن جميع شهوات الدنيا، فصار الهوى والمنية والفرح والسرور درك ما نال من قرب الله -عز وجل-، فنجي من هذا، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تم الكتاب بحمد الله ومنه.

فهرس المحتويات

***